روايات

ELIZABETH GASKELL

إليزابيث غاسكل

بنت الخال فيليس



ترجمة: عماد عبده



بنت الخال فيليس



الأهليّة للنشر والتوزيع

e-mail: alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)

المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12

هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962

ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردنّ

: AlAhliaBookstore

: alahlia_bookstore

الفرع الثاني (المكتبة)

عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34



بنت الخال فيليس / رواية إنجليزيّة

إليزابيث غاسكل / بريطانية

ترجمة: عماد عبده / الأردن



الطبعة العربيّة الأولى، 2020



تصميم الغلاف: **زهير أبو شايب**، عمّان، هاتف ***00962 7 95297109***

®



الصفّ الضوئيّ: **إيمان زكريّا خطّاب**، عمّان، هاتف ***00962 7 95349156***

الترقيم الدولي: ISBN 978-6589-09-864-5

روايات

إليزابيث غاسكل

بنت الخال فيليس



ترجمة: عماد عبده



تصدير

إليـزابيث غـاسكـل

(1810-1865م)

مكتبة
t.me/soramnqraa

هي مؤلفة الرواية، وتدعى أيضاً السيدة غاسكل. كانت من أشهر الروائيين وكُتّاب القصة القصيرة في العصر الفيكتوري (1837–1901م).

تعرض روايات غاسكل صوراً مفصلة للعديد من طبقات المجتمع الإنكليزي بمن فيهم الفقراء المُعدمين؛ لذا فقد كانت رواياتها وما زالت تثير اهتمام المشتغلين بالتاريخ واهتمام عشاق الأدب.

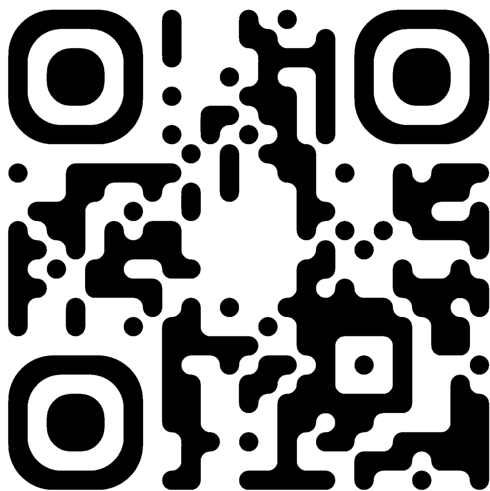
وبالإضافة إلى العمل القصصي فقد كتبت إليزابيث سيرة حياة صديقتها الشاعرة الروائية شارلوت برونتي (1816–1855م)، وهذه السيرة من أكثر أعمال إلبيزابيث غاسكل شهرة.

من روايات غاسكل: «كرانفورد» و«الشمال والجنوب» و«زوجات وبنات» و«عشاق سيلفيا» و«ابنة الخال فيليس»، وهي التي تقدم المكتبة الأهلية ترجمتها الأولى إلى العربية.

في هذه الرواية ينتقل «بول مانينغ» وهو في التاسعة عشرة، من بلدته إلى مدينة أخرى فيسكن وحده ويعمل في إنشاء خطوط

سكة الحديد. ثمّ ينقله عمله إلى بلدة قريبة من «مزرعة الأمل» التي تعود ملكيتها إلى أقارب من جهة أمّه، حيث يلتقي هناك مع «فيليس» ابنة السابعة عشرة، الجميلة والمحبوبة، التي تعيش في عالمها الضيق والصغير والمنتظم والهادئ، إلا أن حياتها الفكرية رحبة، وحبها للتعلم لا حدود له، فحالها كحال والدها.

وتنشأ علاقة وطيدة وصداقة متينة بين رئيس بول في العمل، وهو مهندس مثقف في الخامسة والعشرين، وبين أقارب أمّ بول، علاقة تغذّيها الميول الفكرية المتقاربة والحبّ؛ ويكون لذلك تأثير كبير على سير الحياة في مزرعة الأمل وعلى أصحابها.



فهرس

الجزء الأوّل



إن الانتقال للعيش باستقلالية في غرفة مستأجرة أول مرة يعدّ أمراً رائعاً بالنسبة إلى فتى. لا أعتقد أنني شعرت بذلك القدر من الرضا والاعتزاز في حياتي كما شعرت عندما جلستُ، وأنا في سن السابعة عشرة، في غرفة صغيرة ذات ثلاث زوايا فوق مخبز فطائر في بلدة مقاطعة «إلثام». وكان والدي قد تركني بعد ظهر ذلك اليوم، بعد تقديمه بعض الوصايا البسيطة التي عَبَّرَ عنها بقوة من أجل إرشادي في مسار الحياة الجديد الذي كُنت أَلِجُ فيه. كنُت سأُصبح كاتِباً يعمل تحت إمرة المهندس الذي اضطلع بإنشاء الخط الفرعي الجديد من إلثام إلى هورنباي. وقد حصل لي والدي على هذه الوظيفة، التي كانت ذات منزلة اجتماعية أعلى من منزلته في الحياة، أو ربما عليّ القول إنها فوق المكانة الاجتماعية التي وُلِدَ وترعرع فيها، فقد كان يُرَقّي نفسه في نظر الرجال واحترامهم كل سنة. كان ميكانيكيّاً بالخبرة، إلا أنه كان يتمتع بعبقرية ابتكارية إلى حد ما، وبقدر كبير جداً من المثابرة، وقد استنبط تحسينات عديدة قيّمة في ماكينات سِكّة الحديد. ولكنه لم يقم بفعل ذلك من أجل الكسب،

كما يقتضي المنطق، على الرغم من أن ما أتى في المسار الطبيعي للأمور كان مقبولاً، بل إنه نفّذ أفكاره لأنها، على حد قوله، «كانت تشغل باله في الليل والنهار، إلى أن يتمكن من وضعها موضع التنفيذ». ولكن هذا كافٍ بشأن والدي العزيز، فتوافر عدد كبير من أمثاله يُعدّ نعمة بالنسبة إلى أي بلد. لقد كان مستقلاً ثابتاً على مبادئه بحكم النسب والعقيدة، وأعتقد أن هذا هو السبب الذي جعله يضعني في الغرفة المستأجرة فوق مخبز الفطائر، حيث كانت أُختا القسيس، وهما من منطقتنا، هما اللتان تتوليان أمور المخبز، وكان هذا الأمر من باب الحماية لأخلاقي، بعدما أصبحتُ حرّاً أمام إغراءات أهم بلدة في المقاطعة، مع مُرتب يبلغ ثلاثين باونداً في السنة.

كان والدي قد تخلى عن يومين ثمينين، وارتدى أفضل ملابسه من أجل إحضاري إلى إلثام، واصطحابي أولاً إلى المكتب لتقديمي إلى رئيسي الجديد (الذي كان عليه بعض الالتزامات تجاه والدي، مُقابل اقتراح قدّمه إليه)، ومن ثم اصطحبني في زيارة للقسيس المُستقل المسؤول عن الرعية الصغيرة في السن، في إلثام. وبعدئذ تركني. وعلى الرغم من انزعاجي لمفارقته إلا أنني بدأت الآن أستسيغ مباهج كوني سيد نفسي. أفرغتُ السلة التي زودتني بها أمي، وشممت رائحة أوعية المحفوظات الصغيرة، بكل غبطة المالك القادر على الوصول إلى محتوياتها في أي وقت يحلو له. لمست ووزنت في مُخيِّلتي اللحم المملح المعالج منزليّاً، والذي بدا أنه يمنّيني بولائم لا نهاية لها. والأهم من ذلك كله، كان هناك الإيحاء الرائع المتمثل بمعرفة أنني قادر على أكل كل تلك الطيبات عندما يحلو لي، ووفقاً لرغبتي أنا منفرداً، وليس وفقاً لمشيئة أي شخص آخر، مهما

كانت متساهلة. قمت بتخزين طعامي في خزانة الزاوية الصغيرة، فقد كانت هناك زوايا كثيرة في تلك الغرفة، وكان كل شيء موضوعاً في زاوية ما، الموقد والنافذة والخزانة. وبدا أنني أنا الشيء الوحيد الذي كان في وسط الغرفة، وكان الحيِّز المتوفِّر لي صغيراً جداً. كانت الطاولة مصنوعة من صفيحة قابلة للطي تحت النافذة، وكانت النافذة تطلّ على السوق، لذا، فإن التأملات التي أفضت متابعتها إلى جعل والدي يدفع مبلغاً إضافياً لتوفير غرفة جلوس من أجلي، تحظى بفرص كبيرة في التحول إلى كُتب يقرؤها رجال ونساء. كان يتعين عليّ تناول وجباتي مع الآنستين داوسون المُسنَّتين في الردهة الصغيرة خلف المتجر ذي الزوايا الثلاث في الأسفل، على الأقل وجبتي الإفطار والغداء، فنظراً إلى أن ساعات عملي في المساء كانت على الأرجح غير مؤكدة، فكان احتسائي للشاي، أو عشائي، هو وجبة مستقلة.

ثم، بعد هذا الاعتزاز والرضا، خيَّم إحساس بالوحشة. لم يسبق لي قَطُّ أن كُنت بعيداً عن المنزل من قبل، وكُنت طفلاً وحيداً لوالديّ. وعلى الرغم من أن شعار والدي المُفصَح عنه كان «وفر العصا تُفسد الطفل»، إلا أن قلبه كان يُشفق عليّ بصورة غير واعية، وكان تعامله معي دائماً رقيقاً، أكثر مما كان يدرك أو يمكن أن يوافق عليه في نفسه لو كان يعرف ذلك. وكانت أمّي، التي لم تدّعي أبداً الصرامة، أشد قسوة بكثير من أبي: ربما أن أخطائي الصبيانية أزعجتها أكثر. فأنا أتذكر، الآن بعد أن كتبت الكلمات أعلاه، كيف دافعت عني ذات مرة في صغري، عندما ارتكبت إساءة فعليّاً ضد رأي والدي الذي كان صائباً.

ولكن لا علاقة لكل ذلك بموضوعنا. فسوف أكتب بشأن ابنة الخال فيليس، وأنا إلى الآن بعيد جداً حتى عن قول من هي ابنة الخال فيليس.

طوال عدة أشهر بعد استقراري في بلدة إلثام، كانت الوظيفة الجديدة التي تعينت فيها، والاستقلالية الجديدة في حياتي، تستحوذ على تفكيري بشكل كامل. كنت أجلس على مكتبي في الساعة الثامنة، وأكون في المنزل من أجل تناول وجبة الغداء في الساعة الواحدة، ثم أكون في المكتب مرة أخرى في الساعة الثانية. كان عمل فترة ما بعد الظهر غير محدد بدرجة أكبر مقارنة بفترات الصباح، فمن الممكن أن يكون العمل ذاته، أو من الممكن أن أضطر إلى مرافقة السيد هولدزورث، المهندس المدير، إلى نقطة معينة على خط سكة الحديد بين إلثام وهورنباي. كنت استمتع دائماً بهذا، بسبب التنوع وبسبب الريف الذي كنا نجتازه (والذي كان غير مأهولٍ وجميل)، ولأنني كنت مُكرَّساً فيها لمرافقة السيد هولدزورث، الذي كان مثابة بطل في عقلي الصبياني. لقد كان شابّاً في عمر الخامسة والعشرين أو نحو ذلك. وكان في منزلة اجتماعية أعلى من منزلتي الاجتماعية، بحكم الولادة وبحكم التعليم على حد سواء. وكان قد سافر إلى كافة أرجاء القارة، وكان له شارب ولحية على طراز أجنبي نوعاً ما. كنت أشعر باعتزاز من مشاهدتي برفقته، فقد كان شخصاً رائعاً من نواحٍ عديدة، وكان من الممكن أن أعمل تحت إشراف أشخاصٍ أسوأ بكثير.

كنت أكتب رسائل إلى الأهل في كل يوم سبت أتحدث فيها بعملي الأسبوعي، حيث إن والدي كان قد أصرَّ على هذا الأمر، ولكن كان هناك قدر قليل جداً من التنوع في حياتي إلى درجة أنني

كنت أجد صعوبة كبيرة في ملء رسالة. وكنت في أيام الأحد أذهب إلى الكنيسة مرتين، أصعد في مدخل مُظلم ضيق، لكي أستمع إلى ترنيمات رتيبة، وصلوات طويلة، وإلى عظة أطول، تُلقى بطريقة مُضجرة أمام جماعة صغيرة كُنت أصغرهم سنّاً، بفارق سنوات كثيرة. أحياناً، كان السيد بيترز، القسيس، يدعوني إلى منزله لتناول الشاي بعد المراسم الدينية الثانية. كان ذلك التشريف يُفزعني، فقد كنت أجلس عادة على طرف مقعدي طوال المساء، وأجيب عن أسئلة رزينة تُطرَح بصوت جهير عميق، حتى يحين وقت تلاوة الصلاة المنزلية في الساعة الثامنة. عندها تدخل السيدة بيترز وهي تمسِّد مريولها، وتتبعها الخادمة التي تقوم بجميع الأعمال، فتُلقى موعظة أولاً، ومن ثم تُقرأ سورة من الكتاب المقدس، تليها صلاة مرتجلة طويلة، إلى أن يُدرك السيد بيترز بغريزة ما أن وقت العشاء قد حان، فننهض عن رُكَبنا، وشعورنا الغالب هو الجوع. ويسترخي القسيس قليلاً على مائدة العشاء فيقول طُرفة أو طرفتين من الطُرف المملة، كما لو أن ذلك من أجل أن يريني أن القساوسة هم بشر على الرغم من كل شيء. ثم أذهب إلى المنزل في الساعة العاشرة، وقبل الذهاب إلى الفراش، في غرفتي ثلاثية الزوايا، أستمتع بالتثاؤب الذي منعت نفسي منه مدة طويلة. وكانت دينا وهانّا داوسون، وهذان هما اسماهما الموضوعان على لوحة فوق باب المحل ـ غير أنني كنت دائماً أدعوهما الآنسة داوسون والآنسة هانّا ـ تعتبران زياراتي هذه إلى السيد بيترز أعظم تشريف يمكن أن يحظى به شاب. واعتقدتا بصورة بديهية أنني إن لم أقم بعد كل هذه الامتيازات بإتمام خلاصي، فلا بد أن أكون نسخة عصرية من يهوذا الإسخريوطي.

وعلى النقيض من ذلك، فإنهما كانتا تهزان أكتافهما بخصوص علاقتي بالسيد هولدزورث. لقد كان لطيفاً جداً معي من نواحٍ كثيرة إلى درجة أنني عندما أقوم بتقطيع اللحم المملح، أتردد بشأن فكرة دعوته إلى تناول الشاي في غرفتي، خصوصاً في أثناء انعقاد المعرض السنوي في سوق إلثام حيث مشهد الأكشاك، ودوامات الخيل، وعروض الحيوانات البرية وغيرها من المواكب الريفية، التي كانت (كما كنت أعتقد في سن السابعة عشرة) جذابة جداً. ولكنني عندما غامرت بالتلميح إلى رغبتي حتى بعبارات بعيدة، فقد كشفتني الآنسة هانّا وتحدثت بشأن خطيئة مثل هذه المَشاهد، وبخصوص التمرغ في الحمأة، ثم قفزتْ إلى فرنسا، وتحدثت بأمر فجور الأمة وكل من تطأ قدمه تلك البلد. وبإدراكي أنَّ كل غضبها كان منصبّاً على نقطة واحدة، وأن تلك النقطة كانت السيد هولدزورث، فارتأيت أنه من الأفضل الانتهاء من تناول فطوري، والابتعاد عن دويّ صوتها بأسرع ما أستطيع. وقد استغربت إلى حد ما، فيما بعد عند سماعي لها وللآنسة داوسون وهما تحسبان أرباحهما الأسبوعية بفرح، وتقولان إن مكان مخبز الفطائر في زاوية السوق، في أثناء أسبوع معرض إلثام، لم يكن أمراً سيئاً جداً. ولكنني لم أجرؤ على دعوة السيد هولدزورث إلى غرفتي المستأجَرة.

ليس هناك الكثير مما يُقال بشأن سنتي الأولى هذه في إلثام، لكن عندما أصبحت في سن التاسعة عشر، وبدأت التفكير في لحية خاصة بي، فقد تعرفت على ابنة الخال فيليس، التي لم أكن أعلم بها حتى ذلك الوقت. كنا قد خرجنا، أنا والسيد هولدزورث، إلى هيثبريدج يوماً واحداً، وعملنا بمشقة. وكانت هيثبريدج بالقُرب

من هورنباي، ذلك أن أكثر من نصف خطنا من سكة الحديد كان قد أُنجِز. بطبيعة الحال، كانت نزهة يوم تُعدّ أمراً رائعاً للتحدث بشأنه في رسائلي الأسبوعية. فشرعت بوصف الريف، وذلك ذنب لا أقترفه في كثير من الأحيان. أخبرتُ والدي بالمستنقعات، وبالريحان البري والطحالب الناعمة المنتشرة في كل مكان، وبالأرض المتداعية التي ينبغي أن تحمل خطنا لسكة الحديد. وكيف ذهبنا أنا والسيد هولدزورث، لتناول وجبات الغداء إلى قرية جميلة قريبة، ضمن حدود هيثبريدج، بعد أن اضطررنا إلى البقاء هنا مدة يومين وليلة واحدة، وكيف تمنيت أن نذهب كثيراً إلى هناك، ذلك أن الأرض المتداعية التي لا يمكن الاعتماد عليها كانت تُحير مهندسينا. فقد كان طرف الخط يرتفع حالما يتم وضع ثِقل على الطرف الآخر. (لم أقلق بشأن مصالح المساهمين، كما قد يُتصور. فقد تعين علينا إنشاء خط جديد على أرض ثابتة أكثر، قبل أن يكون تقاطع سكة الحديد قد اكتمل). تحدثت بشأن ذلك بإسهاب، ممتنّاً لملء ورقتي. علمت من رسالة الرد أن ابنة خالٍ لأمي من الدرجة الثانية كانت زوجة قسيس هورنباي المستقل واسمه إبينيزر هولمان، وكانت تعيش ضمن حدود هيثبريدج، هيثبريدج ذاتها التي وصفتُها، أو هكذا اعتقدتْ أمي التي لم يسبق لها أن رأت ابنة خالها فيليس غرين، التي كانت وريثة (كما كان والدي يعتقد)، حيث كانت ابنة وحيدة لوالدها، وكان العجوز توماس غرين يمتلك مزرعة تبلغ مساحتها ما يقرب من خمسين فداناً، ولا بد أن ملكيتها قد انتقلت إلى ابنته. يبدو أن مشاعر أمي أثارها بشدة ذكرُ هيثبريدج، ذلك أن والدي قال إنه يريد مني، إن ذهبت مرة أخرى إلى هناك، أن اسأل عن القسيس إبينيزر هولمان،

وما إذا كان يعيش فعليّاً هناك، وكان عليَّ أن أطرح سؤالاً آخر لأعرف ما إذا كان قد تزوج فيليس غرين. وإذا كان الجواب عن السؤالين إيجابياً، فعليّ أن أذهب وأُقدّمَ نفسي بوصفي الابن الوحيد لمارغريت مانينغ، مونيبيني بالولادة. لقد غضبتُ من نفسي لأنني ذكرت هيثبريدج أصلاً عندما اكتشفت ما الذي جلبته عليّ. وقلت في نفسي إن قسيساً مستقلاً واحداً يكون كافياً بالنسبة لأي رجل. وقد عرفتُ هنا (أقصد أنني أتعرض لتلقين ديني بطريقة السؤال والجواب في فترات صباح أيام الأحد) السيد داوسون، قسيسنا في المنزل، وتعين عليّ أن أكون مُجاملاً للسيد والسيدة بيترز المُسنين في إلثام، وأن أكون مؤدباً مدة خمس ساعات متواصلة، كلما دعاني لاحتساء الشاي في منزله. والآن، بالضبط عندما شعرت بالهواء الحارّ يهب حولي في هيثبريدج، تعين عليّ أن أنقب عن قسيس آخر، وربما يُعرضني هذا لتعلم الدين بطريقة السؤال والجواب، أو أن يدعوني إلى احتساء الشاي في منزله. علاوة على ذلك، فلم أكن أُحب فرض نفسي على غُرباء ربما لم يسمعوا مُطلقاً باسم أمي، ناهيك عن كونه اسماً غريباً... مونيبيني. وإن كانوا قد سمعوا به، فمن الواضح أنهم لم يكترثوا قَطُّ بها أكثر مما اكترثتْ هي بهم إلى أن حدث ذكر هيثبريدج المنحوس هذا. ومع ذلك، ما كُنت لأعصي والديَّ في مثل هذا الأمر البسيط، بصرف النظر عما يمكن أن يسببه لي من ضجر. لذا، ففي المرة التالية التي أوصلني فيها عملنا إلى هيثبريدج، وعندما كنا نتناول الطعام في ردهة النُزل الصغيرة المصقولة بالرمل، انتهزت فرصة وجود السيد هولدزورث خارج الغرفة وطرحت الأسئلة التي أُمِرت بطرحها على الخادمة المتوردة

الوجنتين. إما أنني كُنت غامضاً أو أنها كانت غبية، لأنها قالت إنها لم تكن تعرف، لكنها ستسأل سيدها، وبطبيعة الحال جاء مالك النُزل لكي يفهم ما الذي كُنت أريد معرفته. وتعين عليّ إخراج كل استفساراتي المتلعثمة أمام السيد هولدزورث، الذي يحتمل أنه ما كان ليهتم بها أبداً، لو أنني لم أحمرّ خجلاً وألغو، وأجعل نفسي أبدو كشخص أحمق.

قال المالك، «نعم، كانت مزرعة الأمل ضمن حدود هيثبريدج، وكان اسم مالكها هو هولمان، وكان قسيساً مستقلاً، وكذلك، حسب معلومات مالك النُزل، كان اسم زوجته الأول هو فيليس، على أية حال كان اسم أسرتها قبل الزواج هو غرين».

سأل السيد هولدزورث، «أقاربك؟»

«لا يا سيدي، ابنة خال أمي من الدرجة الثانية فحسب. نعم، أعتقد أنهم أقرباء. ولكنّي لم أرهم قَطُّ في حياتي».

قال مالك النُزل الفضولي ذاهباً إلى النافذة، «إن مزرعة الأمل لا تبعد أكثر من مرمى حجر من هنا. إذا رفعت عينيك فوق حوض الأزهار الخَطْمِيَّة هناك، وفوق أشجار الخوخ في البستان الأبعد، قد تتمكن من رؤية كومة غريبة لما يُشبه المداخن الحجرية. تلك هي مداخن مزرعة الأمل. إنه مكان قديم، على الرغم من أن هولمان يُبقيه في حالة جيدة».

نهض السيد هولدزورث عن الطاولة بعجلة أكثر مني، وكان واقفاً أمام النافذة، ينظر إلى الخارج. ومع آخر كلمات مالك النُزل، استدار مُبتسماً وقال، «لا يحدث كثيراً أن يعرف البارسونز

(القساوسة البروتستانت) كيفية الحفاظ على الأرض بحالة جيدة، أليس كذلك؟»

«أستميحك عذراً يا سيدي، ولكن ينبغي لي أن أتحدث بصراحة. وسوف يشعر القسيس هولمان بالغيرة إلى حدٍّ ما، إنْ سمعك تدعو منشقاً عن الكنيسة بلقب «بارسون»، فنحن نُطلق على رجل الدين في الكنيسة هنا لقب (بارسون) يا سيدي. إن القسيس هولمان يعرف ما هي حقيقته كما يعرفها كل مزارع في الجوار. إنه يُخصص خمسة أيام في الأسبوع لعمله الخاص، ويومين للرب. ومن الصعب تحديد أيِّ العملين يعمل بمشقة أكبر. إنه يقضي أيام السبت والأحد في كتابة المواعظ وفي زيارة رعيته في هورنباي، وفي الساعة الخامسة من صباح يوم الاثنين يقوم بتوجيه محراثه هناك في مزرعة الأمل، تماماً كما لو أنه كان لا يستطيع أن يقرأ أو يكتب. ولكن غداءكما سوف يبرد أيها السيدان».

وهكذا عُدنا إلى الطاولة. وبعد برهة، كسر السيد هولدزورث الصمت: «لو كُنت مكانك، يا مانينغ، لقمت بزيارة أقاربك أولئك. تستطيع أن تذهب وتعرف ما هي صفاتهم بينما ننتظر تقديرات دوبسون، وسوف أقوم بتدخين سيجار في الحديقة في تلك الأثناء».

«شكراً لك يا سيدي. ولكنني لا أعرفهم، ولا أعتقد أنني أريد التعرف إليهم».

رفع بصره نحوي بسرعة وقال، «لماذا طرحتَ كل تلك الأسئلة إذن؟» لم يكن لديه تصور لفعل أشياء أو قول كلام دون غاية. لم أُجب، لذا فإنه تابع، «اتخذ قرارك، واذهب وتعرّف إلى

سمات ذلك القسيس، وارجع وأخبرني، فأنا أرغب في الاستماع إلى ذلك».

كنتُ معتاداً على الخضوع لسلطته، أو تأثيره، إلى درجة أنني لم أفكر مُطلقاً في المقاومة، بل ذهبت في مأموريتي، على الرغم من أنني أتذكر أنني شعرتُ كما لو كنتُ أُفضل أن يُقطع رأسي. قام مالك النُزل، الذي أُثير اهتمامه بشكل واضح في مجرى حديثنا بالطريقة التي يُثار فيها اهتمام أصحاب النُزل - قام بمرافقتي إلى باب المنزل، وقدم إليّ توجيهات متكررة، كما لو كان من المرجح أن أضل طريقي في مسافة مائتي ياردة. ولكنني أصغيت إليه، فقد كنت مسروراً للتأخير، لكي أستجمع شجاعتي لمواجهة أشخاص غير معروفين وتقديم نفسي. أتذكر أنني مشيت على طول الممر مغيراً مساري عند الأعشاب الطويلة على جانب الطريق إلى أن وجدت نفسي، بعد بضعة منعطفات، قريباً من واجهة مزرعة الأمل. كانت هناك حديقة بين المنزل وبين الممر الظليل المكسو بالأعشاب. واكتشفت فيما بعد أن تلك الحديقة تُدعى البلاط، ربما بسبب وجود جدار مُنخفض حولها، مع سياج حديدي في أعلى الجدار، وبوابتين كبيرتين بين الأعمدة متوّجة بكُرات حجرية لإضفاء منظر مهيب للمدخل نحو الممر المرصوف المؤدي إلى الباب الأمامي. لم يكن من عادة أهل المنزل الدخول من أي من هاتين البوابتين أو من الباب الأمامي. في الواقع وجدت أن البوابتين كانتا مقفولتين، على الرغم من أن الباب كان مفتوحاً على مصراعيه، فاضطررت إلى الالتفاف باستخدام ممر جانبي متآكل قليلاً على طريق واسع مكسو بالعشب يوصل إلى باب آخر، مروراً بجدار البلاط، ومروراً بأحد مواقع تجهيز الخيل

للركوب المُغطى حتى منتصفِه بأزهار السدم وأزهار بقلة الملك الصفراء الصغيرة، واكتشفت فيما بعد أن سيد المنزل أطلق على ذلك الباب اسم «راعي الأبرشية» في حين أطلق على الباب الأمامي، الذي كان جميلاً ومظهره جذاباً، اسم «كاهن». طرقت بيدي على باب «راعي الأبرشية» فجاءت فتاة طويلة، توقعتُ أنها في نفس عُمري، تقريباً، وفتحتْه ووقفتْ هناك صامتة تنتظر معرفة مأموريتي. إنني أراها الآن... ابنة الخال فيليس. كانت أشعة الشمس الغربية قد تسلطت بشكل كامل عليها، وشكلت سيلاً مائلاً من الضوء في الغرفة داخل المنزل. كانت ترتدي ثوباً من القطن الأزرق الغامق من نوع ما، يصل في الأعلى إلى عنقها، وفي الأسفل إلى رُسْغَيْ قدميها مع قليل من الكشكش من القماش ذاته حيثما لامس جلدها الأبيض. ويا له من جلد أبيض! لم يسبق لي أن رأيت مثيلاً له. كان شعرها فاتح اللون، أقرب إلى اللون الأصفر من أي لون آخر. نظرتْ إلى وجهي بثبات بعينين واسعتين هادئتين، متسائلة، ولكن غير متأثرة من رؤية شخص غريب. فكرتُ أن ارتداء مريول فوق ثوبها يُعدّ أمراً غريباً جداً بالنسبة إلى امرأة مثلها بلغت أَشُدَّها.

وقبل أن أقرر تماماً ماذا أقول، ردّاً على استفسارها الصامت فيما يتعلق بما أردت من حضوري هناك، صاح صوت امرأة، «مَن هناك يا فيليس؟ إن كان أي شخص يريد اللبن المخيض فأرسليه إلى الباب الخلفي».

فكرت أنه من باب أولى التحدث مع صاحبة ذلك الصوت بدلاً من الفتاة الواقفة أمامي، لذا، فقد تجاوزتها ووقفت عند مدخل غرفة والقبعة في يدي، ذلك أن هذا الباب الجانبي كان يُفضي مباشرة

إلى الصالة أو المكان في المنزل الذي تجلس فيه الأسرة عندما يكون العمل قد أُنجِز. كانت هناك امرأة نشيطة صغيرة الحجم، في سن الأربعين تقريباً، تقوم بكيّ بعض لِفاعات الرقبة من الموسلين تحت ضوء نافذة بابِيَّة مُظللة بكرمة طويلة. نظرتْ إليّ بارتياب إلى أن بدأتُ بالكلام، وقلتُ، «اسمي بول مانينغ»، لكنني رأيت أنها لم تعرف الاسم، فقلت، «كان اسم أمي السابق مونيبيني. مارغريت مونيبيني».

قالت السيدة هولمان بحماس، «وتزوجت من رجل يُدعى جون مانينغ، من بيرمنغهام».

«ولا بد أنك ابنها. اجلس! إنني مسرورة جداً برؤيتك. التفكير في أنك ابن مارغريت! ياه، لقد كانت طفلة تقريباً قبل وقت غير بعيد. حسناً، من غير شك، لقد مرت خمس وعشرون سنة. وما الذي جاء بك إلى هذه النواحي؟»

أجلستْ نفسها وكأنها مُثقلة بفضولها تجاه جميع السنوات الخمس والعشرين التي مرت منذ رؤيتها لأمي. رفعت ابنتُها فيليس قطع حياكتها، التي كانت جوارب رجالية صوفية رمادية طويلة، وبدأت بالحياكة دون النظر إلى عملها. شعرتُ أن حملقة تلك العيون الرمادية العميقة الثابتة كانت تتجه نحوي، على الرغم من أنها عندما رفعتُ نظري خلسة نحوها، كانت تتفحص شيئاً ما على الجدار فوق رأسي.

عندما أجبت عن جميع أسئلة ابنة خالي هولمان، أخذتْ نفساً طويلاً وقالت، «التفكير في أن ابن مونيبيني في منزلنا! أتمنى لو أن القسيس كان هنا. في أي حقل يعمل أبوكِ اليوم يا فيليس؟»

«في الفدان الخامس. إنهم بدؤوا في حصد الذرة».

«إذن لن يُعجبه أن نُرسل في طلبه، وإلا لرغبت في أن تقابل القسيس. ولكن الفدان الخامس بعيد جداً من هنا سيراً على الأقدام. لا بد أن تحتسي كأساً من النبيذ وقطعة من الكعك قبل مغادرتك لهذا المنزل. لو لم تكن مضطر إلى المغادرة، كما تقول، فعلى الأغلب أن يأتي القسيس بعد أن يُنهي الرجال نوبة عملهم في الساعة الرابعة».

«يتعين عليّ أن أذهب. يفترض أن أكون قد غادرت قبل الآن».

«إذن، إليك يا فيليس، خذي المفاتيح». أعطت ابنتها بعض التوجيهات همساً، وغادرت فيليس الغرفة.

سألتُ، «إنها ابنة خالي، أليس كذلك؟» كنت أعرف أنها كذلك، لكنني أردت بطريقة ما التحدث بشأنها، ولم أعرف كيف أبدأ.

«نعم. فيليس هولمان هي ابنتنا الوحيدة، الآن».

عرفتُ، إما من كلمة «الآن» تلك أو من أسى لحظيّ غريب في عينيها، أنه كان هناك أطفال آخرون قد فارقوا الحياة.

قلتُ، «كم تبلغ ابنة الخال فيليس من العمر؟» بدا أنه من المألوف جداً بالنسبة إليّ مناداتها بالاسم الجديد، على الرغم من أنني تجرأت بصعوبة على ذكره. ولكن ابنة الخال هولمان لم تلحظ ذلك، وأجابت عن السؤال بشكل مباشر.

قالت، «السابعة عشرة في عيد أيار/ مايو الماضي. ولكن القسيس لا يُحب سماعي أُدعوه عيد أيار/ مايو». توقفتْ بشيء من

الخوف، وكررتْ قولها بأسلوب معدَّل، «بلغت فيليس السابعة عشرة في اليوم الأول من أيار/ مايو الماضي».

فكرت في نفسي دون أن أعرف لماذا، «وسوف أبلغ أنا سن التاسعة عشرة في غضون شهر». ثم دخلت فيليس تحمل صينية عليها نبيذ وكعك.

قالت ابنة الخال هولمان، «عندنا خادمة منزلية، لكن اليوم هو موعد مخض اللبن، وهي مشغولة». وكان ذلك مثابة اعتذار بسيط فخور لقيام ابنتها بعمل الخادمة.

قالت فيليس بصوتها الجهوري المتزن، «أنا أُحِبُّ القيام بذلك يا أمي».

شعرتُ كما لو أنني كنت شخصاً ما في العهد القديم -ولم أستطع تذكر من هو- تقوم ابنة المُضيف بتقديم الطعام والشراب إليَّ وخدمتي. هل كنت مثل خادم إبراهيم عندما قدمت رفقة إليه الماء ليشرب عند البئر؟ فكرت أن إسحاق لم يمر بأحسن طريقة للحصول على زوجة له. ولكن فيليس لم تفكر قَطُّ بمثل تلك الأمور. لقد كانت شابة أنيقة جليلة في ثياب طفلة وبساطتها.

وكما عُلِّمتُ، فقد شربت نخب صحة ابنة خالي وزوجها المُكتشَفين مؤخراً، ثم تجرأت على ذكر اسم ابنة الخال فيليس مع انحناءة صغيرة من رأسي نحوها. ولكنني كنت أشعر بحرج كبير فلم أنظر لرؤية كيفية تلقيها مجاملتي. وقلتُ وأنا أنهض، «ينبغي لي أن أذهب الآن».

لم تُفكر أي من المرأتين مشاركتي في احتساء النبيذ، في حين تناولت ابنة الخال هولمان كسرة كعك من باب الالتزام بالشكليات.

قالت زوجة القسيس وهي تنهض أيضاً، «أتمنى لو كان القسيس داخل المنزل». في سريرتي، كنت مسروراً جداً أنه لم يكن حاضراً. فلم أكن أتقبل القساوسة كثيراً في تلك الأيام، واعتقدت أنه لا بد أن يكون رجلاً من نوع معين، نظراً إلى اعتراضه على تعبير عيد أيار/ مايو. ولكن قبل أن أغادر، جعلتني ابنة الخال هولمان أتعهد بالعودة يوم السبت القادم وقضاء يوم الأحد معهم، عندئذ يُفترض أن أعرف شيئاً من شأن «القسيس».

«تعال في يوم الجمعة، إن استطعت». كانت تلك آخر كلماتها وهي تقف عند باب راعي الأبرشية، مظللةً عينيها بيدها تفادياً لأشعة شمس الغروب. وجلست ابنة الخال فيليس داخل المنزل، مُضيئة زاوية الغرفة المظللة بالكرمة بشعرها الذهبي وبشرتها المُبهرة. لم تنهض عندما حييتها مودعاً. نظرت إليَّ مباشرة في أثناء نُطقها كلمات الوداع بهدوء.

وجدتُ السيد هولدزورث على خط سكة الحديد، منهمكاً في الإشراف على العمل بجد. وبمجرد حصوله على وقفة مؤقتة، قال، «حسناً يا مانينغ، كيف وجدت ابنتي الخال الجديدتين؟ وكيف يسير الوعظ والزراعة جنباً إلى جنب؟ إذا اتضح أن القسيس كان عمليّاً إضافة إلى كونه رجل دين موقر، فإنني سوف أبدأ باحترامه».

ولكنه بالكاد انتبه لجوابي، فقد كان منشغلاً جداً بتوجيه الأشخاص العاملين لديه. وفي الواقع إن جوابي لم يأت بيسر، وكان الجزء الأكثر بروزاً منه هو ذكر الدعوة التي قُدِّمت إلي.

«أوه، من غير ريب يمكنك أن تذهب، وفي يوم الجمعة، أيضاً، إن شئت. لا سبب لديّ يمنعك من الذهاب هذا الأسبوع. وقد أمضيتَ فترة طويلة من العمل في هذه المرة يا رفيقي». فكرت أنني لا أرغب في الذهاب يوم الجمعة. ولكن عندما جاء اليوم، وجدت أنني أُفضل الذهاب على البقاء بعيداً، لذا استفدت من إذن السيد هولدزورث وذهبت إلى مزرعة الأمل في وقت ما من بعد الظهر، في وقت متأخر أكثر قليلاً مقارنة بزيارتي السابقة. وجدت باب «راعي الأبرشية» مفتوحاً يسمح بدخول هواء شهر أيلول/ سبتمبر العليل، مُلطَّفاً كثيراً بدفء الشمس، فكان الهواء الطلق أدفأ من الجو في الداخل، على الرغم من قطعة جذع الشجرة التي تحترق ببطء دون لهب أمام كومة رماد ساخن على الموقد.

كانت أوراق الكرمة على النافذة مائلة أكثر إلى اللون الأصفر، وكانت أطرافها مسفوعة وملونة بالبني في أماكن متفرقة، لم تكن هناك ثياب للكيّ منتشرة، وجلست ابنة الخال هولمان خارج المنزل ترتق قميصاً. كانت فيليس منكبة على حياكتها في الداخل، وبدا كأنها أمضت الأسبوع كلّه تعمل عليها. وكان هناك طيور مرقطة كثيرة تلتقط بمناقيرها الطعام من أماكن متفرقة خلف فناء المزرعة، وكان هناك أيضاً أوعية حليب معلّقة للتسكين تتلألأ بسطوع. وكان البلاط مليئاً بالزهور إلى درجة أنها زحفت نحو الخارج على الجدار المنخفض المُغطى وعلى منطقة تجهيز الخيل للركوب، بل كانت ممتدّة على العشب المتاخم للممر المفضي إلى الجهة الخلفية من المنزل. تصورتُ أن معطفي المخصص ليوم الأحد قد تعطّر لأيام بعد ذلك بالورد الياقوتي وزهور الدردار التي ملأت

الهواء برائحة زكية. وبين الفينة والأخرى، كانت ابنة الخال هولمان تضع يدها في سلة مغطاة عند قدمها، وترمي ملء قبضتها من حبيبات الذرة إلى الحمائم التي كانت تهدل وترفرف في الهواء حولها، منتظرة الطعام اللذيذ.

تلقيت ترحيباً حاراً بمجرد أن رأتني. قالت وهي تصافحني بحرارة، «هذا لطيف حقاً. هذه مودَّة خالصة... لقد حضر ابن خالك مانينغ يا فيليس!»

قلتُ، «ناديني بول من فضلك. ينادونني هكذا في المنزل، ومانينغ في المكتب».

«حسناً يا بول، إذن. غرفتك جاهزة يا بول، فكما قُلتُ للقسيس، 'سوف أجهزها سواء أتى يوم الجمعة أم لم يأت'. وقال القسيس إنّ عليه أن يذهب إلى حقل أشجار الدردار سواء أتيت أم لم تأت. ولكنه سوف يأتي باكراً ليرى ما إذا كنتَ حضرتَ أم لا. سوف أريك غرفتك، ويمكنك تنظيف نفسك قليلاً من الغبار».

بعد نزولي، أظن أنها لم تعرف تماماً ماذا تفعل معي، أو ربما ظنت أنني مُضجَر، أو ربما كان لديها عمل ينبغي لها أن تُنجزه وكنت أعطلها، فقد نادت فيليس وأمرتها أن تضع قلنسوتها وتذهب معي إلى حقل أشجار الدردار والعثور على والدها. وهكذا انطلقنا وأنا مضطرب من الرغبة في جعل نفسي ودوداً، لكنني تمنيت لو أن مرافِقتي لم تكن طويلة جداً إلى تلك الدرجة حيث إنها كانت تفوقني طولاً. وبينما كنت أتساءل كيف أبدأ المحادثة، بدأت هي بالحديث.

«أظن، يا ابن الخال بول، أنك منشغل جداً بعملك طوال اليوم بصورة عامة».

«نعم، يتعين علينا التواجد في المكتب في الساعة الثامنة والنصف، ولدينا ساعة لتناول الغداء، ومن ثم نعود إلى المكتب مرة أخرى حتى الساعة الثامنة أو التاسعة».

«ليس لديك وقت كثير للقراءة إذن».

قلتُ، «لا». مع إدراك مفاجئ أنني لم أحقق الاستفادة الكبرى من أي وقت فراغ كان لديّ.

قالت، «وليس لديّ وقت أنا أيضاً. فأبي يستيقظ دائماً قبل ساعة للذهاب إلى أحد الحقول في فترات الصباح، لكن أمي لا تُحب أن أستيقظ في وقت مبكر جداً».

قلتُ، «أمي تريد مني دائماً النهوض في وقت أبكر عندما أكون في المنزل».

«في أي ساعة تنهض من الفراش؟»

«أوه!.. ها!.. أحياناً في السادسة والنصف: إلا أن ذلك ليس في كثير من الأحيان. فأنا أتذكر أنني فعلت ذلك مرتين فقط خلال فصل الصيف الماضي».

أدارت رأسها ونظرت إليّ. ثمّ قالت:

«ينهض أبي من الفراش في الساعة الثالثة، وكذلك كان الأمر مع أمي إلى أن مرضت. وأنا أرغب في النهوض في الساعة الرابعة».

قلتُ، «ينهض والدك من الفراش في الساعة الثالثة! لماذا، ما الذي يتعين عليه أن يفعله في تلك الساعة؟»

قالت، «ما الذي لا يتعين عليه أن يفعله؟ إنه يقوم بتمرينه المنفرد في غرفته الخاصة. ويقوم دائماً بقرع الجرس الكبير الذي يدعو الرجال للقيام بالحلب. ويقوم بإيقاظ بيتّي، خادمتنا. وفي معظم الأحيان يُقدم إلى الخيول علفها قبل أن يكون الرجل قد نهض، ذلك أن جيم، وهو الرجل الذي يعتني بالخيول، هو رجل مُسِنّ ووالدي يكره دائماً إزعاجه. ويقوم بتفقد العجول، وكذلك الأكتاف والكعوب وألجمة الأحصنة والتبن والذرة قبل ذهاب الخيول إلى الحقول. ويتعين عليه في كثير من الأحيان برم أسواط الحراثة. ويتأكد من أن الخنازير قد عُلفت؛ وينظر في أحواض طعام الخنازير، ويُدوّن أوامره بخصوص ما هو مطلوب من طعام للرجال والبهائم، نعم، والوقود أيضاً. وبعدئذ، إذا كان لديه قليل من الوقت الزائد، يدخل ويقرأ معي، لكن باللغة الإنجليزية فقط، فنحن ندخر اللاتينية للأمسيات بحيث يكون لدينا متسع من الوقت للاستمتاع بها. وبعدئذ ينادي الرجال ليتناولوا وجبة الفطور، ويقطّع الخُبز والجبن للصبيان، ويتأكد من أن قواريرهم الخشبية مليئة، ويُرسلهم إلى أعمالهم. وبحلول هذا الوقت تكون الساعة قد تجاوزت السادسة والنصف حيث نقوم بتناول وجبة إفطارنا. وهتفتْ، «ها هو أبي»، مشيرة إلى رجل دون معطف، وأطول من الرجلين اللذين كان يعمل معهما بفارق الرأس. رأيناه من خلال أوراق أشجار الدردار المزروعة في سياج من الأشجار فحسب، وظننت أنه لا بد أنني خلطت بين الأشخاص أو أنني أخطأت: فقد بدا ذاك الرجل مثل

عامل قوي جداً، ليس فيه أي شيء من شدة العناية بتفاصيل رزانة المظهر التي كنتُ دائماً أتخيلها سِمَةً مميزة للقسيس. إلا أنه كان القسيس إبينيزر هولمان. وأومأ لنا عند دخولنا إلى حقل الجُذامة. وأظن أنه كان سيأتي لمقابلتنا، لولا أنه كان مشغولاً بإعطاء بعض التوجيهات لرجاله. وكان بإمكاني رؤية أن فيليس مجبولة على غرار نمط والدها أكثر من نمط أمها. لقد كان، مثل ابنته، ذا بنية ضخمة وبشرة بيضاء متوردة، إلّا أنّ بشرتها كانت زاهية وحساسة. وكان شعره أصفر أو بلون الرمل، لكنه أشهب الآن. إلا أن شعره الرمادي لم يدل على ضعف في القوة، فلم يسبق لي أن رأيت رجلاً أقوى. كان لديه صدر عريض، وخاصرتان نحيلتان، ورأس مغروز بثبات. كنا الآن قد وصلنا إليه، تقريباً، فقاطع نفسه وخطا إلى الأمام وهو يمد يده إليّ، لكنْ مُخاطباً فيليس.

«حسناً يا فتاتي الحبيبة، أفترض أن هذا هو ابن الخال مانينغ. انتظر دقيقة أيها الشاب، وسوف أرحب بك ترحيباً لائقاً ورسمياً. ولكن يا «نِدهال»، لا بد أن هناك أخدود ماء في الجهة المقابلة من هذه الأرض: إنها قطعة أرض صغيرة لزجة طينية متيبسة كريهة، ولا بد أن نذهب إليها أنا وأنت، تعال يوم الاثنين القادم -أستميحك عذراً يا ابن الخال مانينغ- وهناك كوخ العجوز جيم بحاجة إلى قليل من الغماء (قش يُسقف به البيت). تستطيع القيام بذلك العمل غداً عندما أكون منشغلاً». ثم أضاف، مغيراً فجأة نبرة صوته الجهوري العميق إلى المسحة الغريبة الخاصة بالكنائس والوعاظ، «الآن سوف أشدو الترنيمة، 'تعالي يا جميع الألسنة المتناغمة'، لتُغنَّى على «لحن 'جبل إفريم'».

رفع جاروفه بيده، وبدأ بضرب دقات الإيقاع به. بدا أن العامِلَين كانا يعرفان الكلمات والموسيقى على حدّ سواء، لكنني لم أكن أعرفها، وكانت فيليس تعرفها أيضاً: تبع صوتها القوي صوت والدها عندما حدد اللحن. وشارك الرجلان بقدر أكبر من الارتياب، لكن مع ذلك بتناغم. نظرتْ فيليس إليَّ مرة أو مرتين بقليل من الدهشة لصمتي، لكنني لم أكن أعرف الكلمات. لقد كنا نحن الخمسة واقفين مكشوفي الرأس، باستثناء فيليس، في حقل الجُدامة الأسمر المصفر الذي لم يتم نقل جميع حِزم الذرة منه بعد. وكانت هناك غابة صغيرة مُظلمة في أحد الجوانب، حيث كان حَمام الورشان يهدل، وفُرجَة زرقاء تُرى من خلال أشجار الدردار من الجهة الأخرى. أعتقد، بطريقة ما، أنني لو كنت أعرف الكلمات وكنت قادراً على الغناء لاختنقت حنجرتي من التأثر بالمشهد غير المألوف.

انتهت الترنيمة، وكان الرجلان قد انسحبا قبل أن أتمكن من التحرك. رأيت القسيس يبدأ بارتداء معطفه، وينظر إليَّ بتفحُّص ودِّيّ في نظرته، قبل أن أتمكن من تنبيه نفسي.

قال، «أظن أنكم أيها السادة في سكة الحديد لا تختمون اليوم بشدو ترنيمة معاً، لكنها ليست ممارسة سيئة - ليست ممارسة سيئة. أنشدناها في وقت أبكر قليلاً اليوم لأغراض الضيافة - ذلك كل شيء».

لم يكن لدي شيء معين أقوله رداً على هذا، على الرغم من أنني كنت أفكر كثيراً. كنت استرق النظر إلى مرافقي من وقت إلى

آخر. كان معطفه أسود، وكذلك كانت صُدرته، ولم يكن مرتدياً ياقة عنق، فكانت حنجرته القوية مكشوفة كلها فوق القميص الأبيض بلون الثلج. وكان مرتدياً سروالاً قصيراً يصل إلى الركبة بلون رمادي مُسمَرّ، وجوارب صوفية رمادية (اعتقدتُ أنني عرفت من خاطها)، وحذاء متيناً مُثبتاً بمسامير. حمل قبعته بيده، كما لو أنه كان يحب أن يشعر بالنسيم القادم يرفع شعره. وبعد برهة، رأيت الأب يُمسك بيد الابنة، وذهبا معاً هكذا ويده بيدها، نحو المنزل. كان علينا عبور ممر ضيق بين الأسيجة، وكان هناك طفلان صغيران، أحدهما ممدد على بطنه فوق العشب في هياج من البكاء، والآخر واقف بسكون كصنم وأصابعه في فمه، والدموع الكبيرة تتدحرج على وجنتيه في تعاطف. وكان سبب كربهما واضحاً، فقد كان هناك وعاء فخاري بني مكسور، وبركة صغيرة من الحليب المندلق على الطريق.

قال القسيس رافعاً بيد واحدة قوية الصبي الصغير المرتدي ملابس تحتية والذي كان ممدداً ينشج، «مرحباً! مرحباً! ما كل هذا؟ لماذا؟ ماذا كنت تفعل يا تومي». نظر تومي إليه بدهشة تملأ عينيه الدائريتين، لكن دون فزع، فقد كان من الواضح أنّ هناك معرفة سابقة بينهما.

«جرة أمي!» قال ذلك أخيراً، وبدأ يبكي من جديد.

«حسناً! وهل سيؤدي البكاء إلى إعادة أجزاء جرة أمك كما كانت، أو إلى جمع الحليب المسكوب؟ كيف تسببت بذلك يا تومي؟»

«كنا، هو (هزّ رأسه باتجاه الصبي الآخر) وأنا، نركض في سباق».

تدخل الآخر، «قال تومي إنه يستطيع التفوق علي».

قال القسيس، كما لو كان مُستغرقاً في التفكير العميق، «إنني أتساءل الآن، أيها الصبيان السخيفان، ما الذي سوف يجعلكما تُفكران فلا تتسابقا مرة أخرى، وبينكما وعاء مملوء بالحليب. من الممكن أن أجلدكما، وأوفر على أمكما العناء، فظني هو أنها ستفعل ذلك إن لم أفعله أنا». وأظهرت موجة النشيج الجديدة من كليهما إمكانية حدوث ذلك.

«أو يمكنني أن آخذكما إلى مزرعة الأمل، وأعطيكما شيئاً من الحليب، لكن عندئذ سوف تركضان في سباق مرة أخرى، وسوف يندلق حليبي على الأرض كما حدث لذلك الحليب، ويشكل بركة صغيرة بيضاء أخرى. أعتقد أن الجلد أفضل، ما رأيكما؟»

قال الصبي الأكبر سنّاً منهما، «لن نركض في سباقات أبداً».

«عندئذ لن تكونا صبيين، بل ملاكين».

«لا، لن نكون ملائكة».

«لِمَ لا؟»

نظر كل منهما إلى عيني الآخر للحصول على جواب لهذا السؤال المحير. ثم قال أحدهما بإسهاب، «الملائكة كائنات ميتة».

«هيا، لن نتعمق كثيراً في علم اللاهوت. ما رأيكما إن أعرتكما وعاء من الصفيح له غطاء، كي تحملاه إلى المنزل؟ فإن ذاك الوعاء لن ينكسر، بأي حال. إلا أنني لن أتحمل مسؤولية اندلاق الحليب إذا ركضتما في سباق. تلك هي المشكلة!»

كان قد ترك يد ابنته، ومد الآن يداً لكل واحد من رفيقيه الصغيرين. تبعناهم أنا وفيليس، وأصغينا إلى ثرثرة الأطفال التي كان رفيقا القسيس ينهالان بها عليه الآن، والتي من الواضح أنه كان يستمتع بها. وعند نقطة معينة، كان هناك ظهور مفاجئ لمشهد طبيعي مسائي وردي مُصفَرّ. استدار القسيس وذكر سطراً أو سطرين باللغة اللاتينية.

قال، «إنه رائع. كم كان فيرجيل موفقاً في وصفه الخالد قبل ما يربو على ألفي عام، وفي إيطاليا. ومع ذلك فإنه يصف بدقة بالغة ما يقع أمامنا الآن في أبرشية هيثبريدج، مقاطعة ....، في إنجلترا».

«أظن أنه كذلك». قلت وأنا متوهج من الخجل، فقد نسيت ذلك القدر القليل الذي سبق أن تعلمته من اللاتينية.

حوّل القسيس عينيه إلى وجه فيليس، الذي رد عليه بصمتٍ التقديرَ المتفهم الذي لم أستطع أنا منحه إياه بسبب جهلي.

فكرتُ، «أوه، هذا أسوأ من تعليم الدين بطريقة السؤال والجواب، فقد كان ذلك مجرد تذكر كلمات».

«فتاتي الحبيبة فيليس، يتعين عليك أن تذهبي مع هذين الصبيين، وأن تخبري أمهما بكل شيء عن السباق والحليب، فعلى الأم أن تعرف الحقيقة دائماً»، قال ذلك الآن وهو يوجه كلامه إلى الصبيين. «وبلّغيها أيضاً أن لديَّ أفضل عصا تأديب في الأبرشية. وإذا ما اعتقدت في أي وقت أنه يلزم جلد طفليها، فعليها أن تحضرهما إلي، وإذا اعتقدتُ أنهما يستحقانه، فسوف أجلدهما أفضل مما تستطيع هي». وهكذا اصطحبتْ فيليس الولدين إلى الملبنة،

القائمة في مكان ما من الفناء الخلفي، وتبعتُ أنا القسيس من خلال باب «راعي الأبرشية» إلى غرفة الأسرة. وقال، «أمهما مشاكسة قليلاً، وتميل إلى معاقبة أطفالها بلا سبب واضح أو منطقي. إنني أحاول الحفاظ على عصا الأبرشية، إضافة إلى الحفاظ على ثور الأبرشية».

جلس على كرسي ثلاثي الزوايا قرب الموقد، ونظر حوله في أرجاء الغرفة الفارغة.

قال مُحدثاً نفسه، «أين الزوجة؟» ولكنها كانت هناك في المنزل رهن الإشارة. لقد كانت خطتها المعتادة أن تُرحب به بعد عودته، وقد افتقدها الآن. ذكر لها ما فعله في النهار غير مبالٍ بحضوري، ثم قال، وهو ينهض، إن عليه أن يجعل نفسه «موقراً»، ثمّ سوف نحتسي كوباً من الشاي في صالة الاستقبال. وكانت صالة الاستقبال غرفة كبيرة، فيها نافذتان بابيَّتان، قائمة على الجانب الآخر من الممر الواسع المرصوف المؤدي من باب الكاهن إلى الدرج العريض بدرجاته المصنوعة من خشب البلوط والمصقولة وقليلة العمق، والتي لم يوضع أي بساط عليها قَطُّ. وكانت أرضية صالة الاستقبال مُغطاة في الوسط ببساط منزلي الصنع بتطريز وحاشية. وكان هناك بضع صور عائلية غريبة لأسرة هولمان مُعلقة هنا وهناك على الجدران. وكانت حاملة الوقود والمكاوي مُرصعة كثيراً بالنحاس. وكان هناك أيضاً أصيص زهور كبير على طاولة مستندة إلى الجدار بين النافذتين، وكان الأصيص موضوعاً بين مجلدات بالحجم الكبير لإنجيل ماثيو هنري. لقد كان استخدام هذه الغرفة مثابة مجاملة لي، وحاولت أن أكون ممتناً لذلك، لكننا لم نتناول وجباتنا هناك مُطلقاً بعد ذلك اليوم الأول، وكنت مسروراً لذلك. فقد كانت غرفة

الأسرة، أو غرفة المعيشة، أو غرفة الطعام، أو أيّاً كان ما ترغب في تسميتها به، مبهجة ومريحة أكثر بمرتين. لقد كان هناك بساط أمام موقد النار الكبير، وفرنٌ قرب حاملة الوقود، وعصا راعٍ مع الغلاية التي تتدلى منها فوق نار الحطب المتوهجة. كل شيء كان ينبغي أن يكون أسود ولامعًا في تلك الغرفة، كان أسود ولامعًا. وكانت حجارة البلاط وستائر النوافذ، وكل الأشياء التي كان من المفترض أن تكون بيضاء ونظيفة، خالية من البقع تماماً وناصعة في نقائها. ومقابل موقد النار، كان هناك لعبة الشوفيلبورد، المصنوعة من خشب البلوط، تمتد على كامل طول الغرفة بالميلان الصحيح الذي يجعل اللاعب الماهر قادراً على توجيه الأوزان إلى المكان المحدد. وكان هناك أيضاً سلال من الأشغال البيضاء هنا وهناك، ورف صغير من الكتب معلقاً على الجدار، وكتب تستخدَم للقراءة وليس لسَنْد أصيص أزهار. أنزلتُ بضعة من تلك الكتب ذات مرة عندما تُرِكتُ وحدي في غرفة الأسرة في أول أمسية -فيرجيل، وقيصر، وقواعد يونانية- أوه، يا إلهي! واسم فيليس هولمان على كل واحد منها! أغلقتُها، وأعدتها إلى أماكنها، وابتعدت عن رف الكتب قدر استطاعتي. نعم، وابتعدت عن ابنة الخال فيليس، كما لو كانت جالسة تعمل على أشغالها بهدوء كبير، وكان شعرها يبدو ذهبياً أكثر، ورموش عينيها الداكنة أطول، وعنقها أشدَّ بياضاً من أي وقت مضى. احتسينا الشاي وعدنا إلى غرفة الأسرة، حيث يستطيع القسيس تدخين غليونه دون أن يخشى تلويث ستائر نوافذ صالة الاستقبال المصنوعة من الحرير الرمادي المسمَر. وكان قد جعل نفسه «موقراً» من خلال ارتداء إحدى ياقات العنق الفضفاضة من

قماش الموسلين، والتي رأيت ابنة الخال هولمان تقوم بكيِّها في تلك الزيارة الأولى التي قمت بها لمزرعة الأمل، ومن خلال عمل بضعة تغييرات أخرى غير مهمة في ملابسه. جلس ينظر نحوي بثبات، لكن لم أتمكن من معرفة ما إذا كان يراني أم لا. في ذلك الوقت، تصورت أنه كان يراني، وكان يقوم بتقييمي بطريقة ما غير معروفة في عقله الباطن. كان يُخرج غليونه من فمه بين الفينة والأخرى، فيخرج الرماد منه بالطَّرْق، ويسألني سؤالاً جديداً. وكلما كانت هذه الأسئلة غير متعلقة بمؤهلاتي أو بقراءتي، كنت أتملص بصعوبة ولا أعرف بماذا أجيب. وفي نهاية المطاف وجد حلاً بالتطرق إلى الموضوع العملي أكثر المتعلق بخطوط السكك الحديدية، وفي هذا الموضوع كنت مسترخياً ومرتاحاً. إنني مهتم بعملي فعليّاً، وفي الواقع فإن السيد هولدزورث ما كان ليُبقيني موظفاً عنده لو لم أكن قد منحت العمل عقلي ووقتي. وكنت، علاوة على ذلك، غارقاً في المشاكل المحدقة بنا، في ذلك الوقت بالتحديد، بسبب عدم قدرتنا على العثور على قاعدة ثابتة في مستنقع هيثبريدج نستطيع تحميل خطنا عليها. وفي خضم حماسي بالحديث بهذا الأمر، لم يكن في وسعي ألا أكون مصدوماً من مدى وثاقة صلة أسئلته بالموضوع. لا أقصد أنه لم يُبدِ جهلاً بالعديد من التفاصيل الهندسية: فذلك كان متوقعاً، لكنه كان يفكر بوضوح وبشكل منطقي بناء على المقدمات المنطقية التي فهم مضمونها. وفيليس، التي تُشبهه كثيراً في الجسد وفي العقل على حد سواء، استمرت بالتوقف عن عملها والنظر إلي محاولة أن تفهم كل ما كنت أقول فهماً كاملاً. لقد شعرتُ أنها فهمته،

وربما جعلني ذلك أبذل مزيداً من الجهد لكي أستخدم تعابير واضحة، وأن أرتب كلماتي بشكل أكبر مما كُنت سأفعل خلافاً لذلك.

فكرتُ في نفسي، «سوف ترى أنني أعرف شيئاً ما يستحق المعرفة، على الرغم من أنه مختلف عن لغاتها الميتة والمنقرضة».

قال القسيس، بعد وقت طويل، «نعم. فهمتُ كل شيء. لديك عقل مستقل بارع وصافٍ يا بُني، كيف حصلت عليه يا ترى».

قلتُ باعتزاز، «من والدي. ألم تسمع باكتشافه طريقةً جديدة لتحويل القطارات من خط إلى آخر؟ لقد نُشر في الجريدة الرسمية، وحصل على براءة اختراع. اعتقدتُ أن الجميع سمعوا ببراءة اختراع رافعة مانينغ».

قال وهو يبتسم ابتسامة خفية، ويرفع غليونه، «نحن لا نعرف من اخترع الأبجدية».

أجبتُ وقد شعرتُ بشيء من الإساءة، «لا، لا أظنُ يا سيدي. لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد جداً». بف بف بف.

قال، «ولكن لا بد أن يكون والدك رجلاً بارزاً. سمعت بأمره ذات مرة من قبل، وقلة هم من يبعدون خمسين ميلاً وتصل شهرتهم إلى هيثبريدج».

«والدي رجل بارز يا سيدي. لست أنا من يقول ذلك. إنه السيد هولدزورث، وكذلك - والجميع أيضاً».

«إنه مُحق في مناصرة والده». قالت ابنة الخال هولمان ذلك، كما لو كانت تدافع عني.

كنت غاضباً في داخلي، أفكر في أن والدي لا يحتاج إلى شخص يناصره. لقد كان رجلاً معتّداً بنفسه مكتفياً ذاتياً.

قال القسيس بهدوء، «نعم... إنه مُحق. مُحق لأنه يتحدث من قلبه... ومُحق، أيضاً، حسب اعتقادي، لأن تلك هي حقيقة الأمر. كما أن هناك الكثير من الديوك الصغيرة التي ستقف على مزبلة، ويصيح كل منها بشأن والده بغية تلميع ريشه». وتابع ملتفتاً مباشرة إليَّ بنظرة لطيفة صادقة في عينيه، «أرغب في التعرف إلى والدك».

ولكنني كنت متكدراً، وتجاهلته. كان قد انتهى من تدخين غليونه، فنهض في الحال وغادر الغرفة. وضعت فيليس أشغالها جانباً بسرعة، وتبعتْه. عادت بعد بضع بدقائق وجلست مرة أخرى. وبعد وقت غير طويل، وقبل استعادة مزاجي الجيد بشكل كامل، فَتح القسيس الباب الذي خرج منه، وطلب مني مرافقته. ذهبتُ من خلال ممر حجري إلى داخل غرفة غريبة متعددة الزوايا، مساحتها أقل من عشر أقدام، وكان جزء منها حجرة دراسة وجزء مكتب محاسبة، ومُطلة على فناء المزرعة. كان فيها منضدة تستخدم في وضعية الجلوس، ومنضدة تستخدم في وضعية الوقوف، ومِبصقة، ومجموعة رفوف مع كتب لاهوتية قديمة فوقها. ومجموعة رفوف أخرى أصغر مليئة بكتب في البيطرة والزراعة والأسمدة، ومواضيع مشابهة، مع قصاصات من الورق تحتوي على مذكرات ملصقة على الجدران، المدهونة باللون الأبيض، بواسطة رقاقات لاصقة ومسامير ودبابيس وأي شيء في المتناول. كما كان هناك صندوق أدوات نجارة على الأرض، وكان على المنضدة بعض المخطوطات المكتوبة بطريقة الاختزال.

استدار وهو يضحك ضحكة مكتومة، وقال واضعاً يده القوية الضخمة على كتفي، «تعتقد ابنتي، وقد أضحكتني، أنني كدرتك. فقلتُ لها 'لا، ما يقال بقصد طيب يُتقبَّل بمزاج طيب'، أليس كذلك؟»

أجبت أنا، مغلوباً على أمري من أسلوبه، «لم يكن الأمر كذلك بالضبط يا سيدي. ولكنه سيكون كذلك في المستقبل».

«هيا، إن ذلك صحيح. ينبغي أن نكون، أنا وأنت، أصدقاء. في الواقع إنني لا أُحضِر كثيراً من الناس إلى هنا. ولكنني كنت أقرأ كتاباً هذا الصباح ولم أتمكن من إتمامه. إنه كتاب تُرِك هنا بالخطأ ذات يوم. كنت قد اشتركت مع مواعظ الأخ روبنسون، وسررت برؤية هذا الكتاب بدلاً منها، فالمواعظ على الرغم من أنها، إنها... حسناً لا يهم! لقد أخذتُهما كليهما، وجعلت معطفي القديم أطول قليلاً. إنني قادر على الاستفادة منها جميعها. لدي عدد من الكتب أقل من وقت الفراغ اللازم لقراءتها، ولدي شهية هائلة. ها هو».

لقد كان مجلداً في ميكانيكيا الجساءة، ينطوي على الكثير من المصطلحات الفنية، وبعض الرياضيات العويصة إلى حد ما. وهذه الأخيرة التي كان من الممكن أن تستعصي علي، كانت أموراً سهلة بالنسبة إليه، وكان كل ما يحتاج إليه هو شرح للكلمات الفنية، التي كنت قادراً على تقديمها إليه بسهولة.

وعندما كان ينظر خلال الكتاب ليعثر على الأماكن التي استعصت عليه، التقطت عيناي الهائمتان بعض الأوراق على الجدار، ولم أستطع منع نفسي من قراءة إحداها، ما جعلها تلازمني

منذ ذلك الحين. في البداية، بدت تقويماً أسبوعياً من نوع ما. ولكن بعدئذ رأيتُ أن الأيام السبعة كانت مقسمة إلى أجزاء لصلوات وشفاعات خاصة: الاثنين لأسرته، والثلاثاء للأعداء، والأربعاء للكنائس المستقلة، والخميس لجميع الكنائس الأخرى، والجمعة للأشخاص المُبتلين، والسبت لنفسه، والأحد لجميع التائهين والعاصين، على أمل إعادتهم إلى جماعة المؤمنين.

جرى استدعاؤنا للعودة إلى غرفة الأسرة لتناول طعام العشاء. كان هناك باب يُفضي إلى المطبخ قد تم فتحه. ووقف الجميع في كلتا الغرفتين، وهنا استندت إحدى يدي القسيس، الطويلة والضخمة، إلى المائدة المغطاة بمفرش، والأخرى مرفوعة، وقال بالصوت العميق الذي كان من الممكن أن يكون مرتفعاً لو لم يكن جهورياً وقوياً، لكن دون اللهجة أو الخنة الغريبة التي أعتقد أن بعض الناس كانوا يعدّونها ورعاً، «سواء كنا نأكل أو نشرب أو نقوم بأي عمل من أي نوع، دعنا نقوم بذلك جميعاً لمجد الرب».

كان العشاء فطيرة لحم ضخمة. وتم تقديم الطعام أولاً لنا نحن الذين كنا في غرفة الأسرة. ثم قام القسيس فجأة بضرب المائدة بمقبض سكينه الخاص بالنحت، والمصنوع من قرن الغزال، وقال:

«الآن وإلّا فلا». ما يعني، هل يريد أي منا المزيد. وعندما رفضنا جميعنا، إما من خلال الصمت أو بالكلمات، نقر مرتين بسكينه على المائدة، فجاءت بيتَي من الباب المفتوح، وحملت الطبق

الكبير إلى المطبخ، حيث كان هناك رجل مُسنّ وشابّ وخادمة، في انتظار وجبتهم.

قال القسيس مُحدثاً بيتّي، «أغلقي الباب لو سمحتِ».

قالت ابنة الخال هولمان في نبرة رضا في أثناء إغلاق الباب، «ذلك تكريماً لك. عندما لا يكون معنا غرباء، يُحِبُّ القسيس ترك الباب مفتوحاً والتحدث مع الرجال والخادمات بقدر ما يتحدث مع فيليس ومعي».

قال هو موضحاً، «ذلك يجمعنا معاً بوصفنا عائلة تماماً قبل أن نجتمع بوصفنا عائلة في الصلاة. ولكن لكي نعود إلى حديثنا السابق - هل تستطيع أن تخبرني بأي كتاب في الديناميكا أستطيع أن أضعه في جيبي فأدرسه قليلاً في أوقات الفراغ في أثناء النهار؟»

قالت فيليس بأسلوب أقرب إلى الابتسام من أي شيء سبق أن رأيته على محياها: «أوقات فراغ يا أبي؟»

«نعم، أوقات الفراغ يا بنيتي. هناك الكثير من الدقائق الزائدة الضائعة في انتظار أشخاص آخرين. ونظراً إلى أن خطوط السكك الحديدية ستصبح الآن قريبة منا، فإن ذلك يُلزمنا بمعرفة شيء ما عنها».

فكرتُ في وصفِه هو نفسه «لشهيته الهائلة للتعلم». ولديه شهية جيدة أكثر للمأكولات المادية التي أمامه. ولكنني أدركتُ، أو تصورتُ أنني أدركتُ، أن له بعض القواعد الخاصة به في مسألة الطعام والشراب على حد سواء.

بمجرد انتهاء العشاء، اجتمع أفراد الأسرة لأداء الصلاة. لقد كانت صلاة مسائية مرتجلة طويلة، وكان من الممكن أن تبدو مفككة بما فيه الكفاية، لو لم يكن لدي لمحة من نوعية اليوم الذي سبقها، وبالتالي كنت قادراً على تكوين فكرة في الأفكار التي سبقت الكلام غير المترابط. ذلك أنه استمر في الركوع في وسط الحلقة وعيناه مغلقتان، ويداه الممدودتان تضغط إحداهما على الأخرى، كفاً على كف - أحياناً مع وقفة طويلة من الصمت، التي كان فيها أي شيء آخر يرغب في «وضعه بين يدي الرب!» (على حد تعبيره) - قبل أن يختتم بصلاة شكر النعمة. لقد صلى من أجل الماشية والكائنات الحية، وهذا ما أدهشني كثيراً، وكان انتباهي قد بدأ يهيم إلى أن استدعته الكلمات المألوفة.

وهنا، عليَّ ألا أنسى ذكر حادث غريب وقع في ختام الصلاة، قبل أن ننهض عن ركبنا (وفي الواقع قبل أن تكون بيتّي مستيقظة تماماً، فقد كان من عادتها أخذ قيلولة عميقة، ورأسها المنهك مضجع على ذراعيها المتينين). تحدث القسيس، الذي كان ما يزال راكعاً في الوسط، لكن عينيه مفتوحتان على اتساعهما وذراعيه ملقاتان على جانبيه، مع الرجل الأكبر سناً، الذي استدار على ركبتيه لكي يُصغي، وقال مُخفضاً صوته، «جون، هل تأكدت أن ديزي حصلت على هريسها الدافئ هذه الليلة، إذ ينبغي ألا نُهمل الأسباب يا جون - رُبعا جالون من العصيدة، وملء ملعقة من الزنجبيل، وربع قدح من الجعة - إن الدابَّة المسكينة بحاجة إليها، وأخشى أن أكون قد نسيت أن أخبرك بذلك. وها أنذا هنا أطلب النعمة وأُهمل الأسباب، وذلك أمر مثير للسخرية». قبل أن نذهب للنوم، أخبرني

بأنه قد يراني قليلاً أو قد لا يراني على الإطلاق خلال زيارتي، التي كانت ستنتهي مساء يوم الأحد، ذلك أنه كان يكرس دائماً يومي السبت والأحد لعمله في الكهنوت. وتذكرتُ أن صاحب النُزل كان قد قال لي هذا في اليوم الذي استفسرت فيه أول مرة عن أقاربي الجدد هؤلاء. ولم أكره الفرصة التي رأيت أنها كانت ستُمنَح لي للتعرف أكثر إلى ابنتي الخال هولمان وفيليس، على الرغم من أنني تمنيت ألا تقوم الأخيرة بمداهمتي في موضوع اللغات الميتة.

خلدت إلى النوم، وحلمت أنني كنت طويلاً مثل ابنة الخال فيليس ونَمَت لحيتي بشكل مفاجئ وعجيب، وأنني اكتسبت معرفة باللاتينية واليونانية بشكل أغرب وأعجب. واحسرتاه! استيقظت وما أزال صبياً قصيراً بلا لحية وكل ما أعرفه من اللاتينية هو تعبير «تمبوس فوجيت (الوقت يمر بسرعة كبيرة)»، وعندما كنت أرتدي ملابسي خطرت لي فكرة رائعة: أستطيع أن أطرح أسئلة على ابنة الخال فيليس بدلاً من قيامها هي بطرح الأسئلة عليّ، وبذلك أتمكن من إبقاء اختيار مواضيع المحادثة تحت سيطرتي أنا.

كان الجميع قد تناولوا فطورهم في وقت مبكر. وكان طبقي من الخبز والحليب قد وُضِع فوق الفرن في انتظار نزولي. وكان كل شخص قد باشر عمله. وكانت فيليس هي أول من دخل إلى غرفة الأسرة حاملة سلة من البيض. وملتزماً بقراري، سألتَها:

«ما تلك؟»

نظرت إليَّ برهة، ثم قالت بجدية، «بطاطا!»

قلتُ، «لا! إنها ليست بطاطا. إنها بيض. ماذا تقصدين بقولك إنها بطاطا؟»

أجابت بسرعة بديهة، «ماذا تقصد بسؤالك إياي ما هي، في حين أنها واضحة للعيان؟»

كنا كِلينا قد بدأنا نشعر بشيء من الغضب من بعضنا.

قلتُ، «لا أدري. أردتُ أن أبدأ الحديث معك، وكنت خائفاً من أن تتحدثي بالكتب كما فعلت يوم أمس. لم أقرأ كثيراً، في حين أنك والقسيس قد قرأتما الكثير جداً».

قالت، «لم أفعل. ولكنك ضيفنا، وتقول أمي إنه يتعين عليّ أن أجعل الضيافة سارّة بالنسبة إليك. لن نتحدث بالكتب. ما الذي ينبغي أن نتحدث به؟»

«لا أعرف. كم عمرك أنت؟»

«بلغت سن السابعة عشرة في أيار/ مايو الماضي. وكم عمرك أنت؟»

قلتُ، وأنا أشد نفسي نحو الأعلى حتى أقصى طول لي، «أنا في سن التاسعة عشرة. أكبر منك بحوالي سنتين».

ردت، «ما كُنت لأفكر أنك أكبر من ستة عشر عاماً». قالت ذلك بهدوء كبير كما لو أنها لم تكن تتفوّه بأكثر شيء مستفزّ يمكنها قوله. ثم كانت هناك فترة صمت مؤقتة.

سألتُ، «ماذا ستفعلين الآن؟»

«يُفترض أن أقوم بنفض الغبار في غرف النوم، لكن أمي قالت إنه من الأفضل أن أبقى وأجعلك تستمتع بوقتك». قالت ذلك بحزن كما لو أن نفض الغبار في الغرف كان العمل الأسهل.

«هلّا أخذتني لرؤية الماشية؟ فأنا أحب الحيوانات، على الرغم من أنني لا أعرف الكثير من شؤونها».

«أوه، حقاً؟ أنا مسرورة جداً! خشيت أنك لا تحب الحيوانات، مثل عدم حبك للكُتب».

استغربتُ من قولها ذلك. أعتقد أنها قالته لأنها بدأت تتصور أن ذوقينا لا بد أن يكونا مُتباينين. ذهبنا معاً من خلال فناء المزرعة كلّه. وقمنا بإطعام الطيور الداجنة. حيث كانت هي جالسة في وضعية القرفصاء ومريولها مليء بالذرة والجريش، وتجذب إليها الفراخ الصغيرة الناعمة الخائفة، ما تسبب بهلع أمها، الدجاجة المنفوشة الريش وسريعة الاهتياج. ثم نادت فيليس الحمامَ، الذي رفرف عند سماع صوتها. وتفحصنا أنا وهي أحصنة العربات الملساء الضخمة، وأبدينا تشاركاً وجدانياً بكراهيتنا للخنازير، وأطعمنا العجول، ولاطفنا البقرة المريضة ديزي، وأبدينا إعجابنا بالبقرات الأخريات في المرعى، وعدنا متعبين وجائعين ومتسخين في موعد وجبة الغداء، وقد نسينا تماماً أنه كان هناك أشياء مثل ما يُسمى لغات ميتة، ومِن ثَمَّ أصبحنا صديقين رائعين.

الجزءُ الثّاني



أعطتني ابنة الخال هولمان صحيفة المقاطعة الأسبوعية، لكي أقرأها لها بصوت مرتفع، في أثناء قيامها هي برتق جوارب تأخذها من كومة عالية مكدسة في سلة، إذ إن فيليس كانت تساعد أمها. واصلتُ القراءة دون انتباه للكلمات التي كنت ألفظها، مُفكراً في أمور كثيرة أخرى، في لون شعر فيليس الزاهي عندما سقطت أشعة شمس ما بعد الظهر على رأسها المائل، وفي صمت المنزل الذي جعلني قادراً على سماع التكة المزدوجة للساعة القديمة المنتصبة في منتصف المسافة على الدَّرَج، وفي الأصوات المتنوعة غير الواضحة التي كانت ابنة الخال هولمان تُحدِثها في أثناء قراءتي لتعبِّر عن تعاطفها أو استغرابها أو خوفها من المعلومات الواردة في الصحيفة. لقد جعلتني الرتابة الهادئة لتلك الساعة أشعر كما لو أنني قد عشت دهراً، وأنني كنت سأعيش إلى الأبد أقرأ فقرات بنبرة رتيبة مملّة في تلك الغرفة الدافئة المشمسة، مع مستمعتيَّ الهادئتين، ومع القطة الصغيرة النائمة، وهي متكورة على نفسها على البساط بجانب الموقد، وساعة الحائط على درج المنزل تطقطق باستمرار معلنة مرور

اللحظات. وفي نهاية المطاف، جاءت الخادمة بيتّي إلى باب المطبخ وأشارت إلى فيليس، التي وضعت جانباً الجوارب المُرتقة جزئياً، وذهبت إلى المطبخ دون أن تنطق بأي كلمة. نظرتُ إلى ابنة الخال هولمان بعد بضع دقائق فاكتشفت أنها أسقطت ذقنها على صدرها وخلدت إلى نوم عميق. أنزلتُ الصحيفة وكنت أوشكُ أن أحذو حذوها، عندما أدت نسمة هواء من مصدر غير مرئي إلى فتح الباب المفضي إلى المطبخ، الذي لا بد أن تكون فيليس قد تركته غير محكم الإغلاق، فرأيت هيئتها حيث كانت جالسة قرب خزانة أدوات المطبخ تُقشر التفاح بمهارة كبيرة في استخدام الأصابع بسرعة، لكن مع دوران متكرر لرأسها نحو كتاب موضوع فوق خزانة أدوات المطبخ بقربها. نهضتُ بهدوء، ودخلت إلى المطبخ بهدوء، ونظرت من فوق كتفها. وقبل أن تنتبه لوقوفي بجوارها، رأيتُ أن الكتاب كان بلغة لا أعرفها، وأن العنوان المتكرر كان «الجحيم». وبالضبط عندما كنت أستوعب علاقة هذه الكلمة مع كلمة «جهنمي»، جفِلَت واستدارتْ، ثم، كما لو كانت تتابع أفكارها في أثناء تكلمها، قالت في تنهيدة واضعةً إصبعها تحت أحد الأسطر:

«أوه، إنه صعب جداً! هل يمكنك مساعدتي؟»

قلتُ، «أنا! إنني لا أعرف حتى ما هي اللغة المكتوب فيها!»

ردت بشكل وقح تقريباً، «ألا ترى أنه دانتي؟» لقد فعلَت ذلك لأنها كانت تريد المساعدة.

«باللغة الإيطالية إذن؟» قلتُ ذلك بارتياب حيث إنني لم أكن متأكداً.

قالت، «نعم. وأنا راغبة جداً في استيعابه. يستطيع أبي مساعدتي قليلاً، فهو يعرف اللغة اللاتينية، إلا أن لديه القليل جداً من الوقت».

قلتُ، «أظن أنه ليس لديكِ أنتِ الكثير من الوقت إذا كان يتعين عليك، في كثير من الأحيان، القيام بعملين في آن معاً كما تفعلين الآن».

قالت، «أوه! ذلك لا يُعدّ شيئاً! لقد اشترى أبي كومة من الكتب القديمة بسعر زهيد. وأنا أعرف شيئاً عن دانتي من قبل، وأحببت دائماً فيرجيل إلى حد كبير. ويعدّ تقشير التفاح أمراً بسيطاً جداً، فقط لو كان بإمكاني فهم هذه اللغة الإيطالية القديمة. أتمنى لو كنتَ تعرفها».

متأثراً باندفاع نبرتها، قلتُ، «أتمنى ذلك. لو أن السيد هولدزورث كان هنا الآن. أعتقد أنه يُتقن التحدث باللغة الإيطالية إتقاناً تاماً».

نظرت فيليس إلى الأعلى وقالت، «من هو السيد هولدزورث؟»

«أوه، إنه رئيس مهندسينا. إنه شخص من الطراز الأول بانتظام. إنه يستطيع عمل أي شيء». بدأ احترامي لقدوتي واعتزازي برئيسي يُظهران تأثيرهما. علاوة على ذلك، إذا كنت أنا نفسي غير ذكي وغير مُثقف في الكتب، فقد كان من الجيد أن تكون لي علاقة بشخص ذكي ومثقف.

سألت فيليس، «كيف كان له أن يتكلم اللغة الإيطالية؟»

«تعين عليه إنشاء خط سكة حديد يمر بإقليم بييمونتي، الذي يقع في إيطاليا، على ما أعتقد. وتعين عليه التخاطب مع جميع العاملين باللغة الإيطالية. وسمعته يقول إنه لم يكن لديه، على مدى عامين تقريباً، سوى كتب باللغة الإيطالية ليقرأها في الأماكن الأجنبية والغريبة التي كان مقيماً فيها».

قالت فيليس، «أوه، يا إلهي! أتمنى ...» ثم توقفت. لم أكن متأكداً تماماً مما إذا كان ينبغي لي أن أقول الشيء التالي الذي خطر في بالي، لكنني قلته.

«هل أستطيع توجيه أسئلة إليه بخصوص كتابك أو الصعوبات التي تواجهينها؟»

صمتت دقيقة واحدة أو نحو ذلك، ثم أجابت:

«لا! لا أعتقد. شكراً جزيلاً لك على أي حال. أستطيع عادة أن أكتشف بنفسي بعض ما يستعصي عليّ مع الوقت. وعندئذ، ربما، أتذكره بشكل أفضل مما لو ساعدني شخص ما. سوف أضعه جانباً الآن. وأنت عليك أن تبتعد من هنا، إذ ينبغي لي أن أُعدّ عجينة الفطيرة. نحن نتناول دائماً غداء بارداً في أيام الأحد».

«ولكن يمكنني أن أبقى وأساعدك، ألا تسمحين لي بذلك؟»

«أوه، نعم. ليس لأنك تستطيع تقديم الكثير من المساعدة، لكنني أحب أن تكون معي». شعرتُ بالإطراء والانزعاج على حد سواء بهذه المجاهرة المباشرة. كنت مسروراً لأنها رغبت بحضوري، لكنني كنت شاباً غبياً مخدوعاً بما فيه الكفاية لكي أتمنى لعب دور

الحبيب، وكنت عاقلاً بما يكفي لكي أُدرك أنه لو كان في ذهنها أي فكرة من هذا القبيل لما جاهرت مطلقاً بهذه الصراحة. إلا أنني واسيت نفسي فوراً من خلال التفكير في أن العنب كان حامضاً. فتاة طويلة جداً ترتدي مريولاً، وأطول مني بنصف رأس، وتقرأ كتباً لم أسمع بها مُطلقاً، وتتحدث بشأنها أيضاً كما لو كانت مثيرة للاهتمام أكثر من أي مواضيع شخصية. لقد كان ذلك هو آخر يوم أُفكر فيه بابنة الخال العزيزة فيليس بوصفها حبيبة ممكنة لقلبي وحياتي. ولكننا كنا صديقين رائعين جداً ما يجعل هذه الفكرة مستبعدة تماماً ومطمورة بعيداً عن الأنظار.

وصل القسيس من هورنباي في وقت متأخر من المساء. لقد كان يقوم بزيارات للأعضاء المتنوعين من رعيته، وقد أثبت له ذلك أن العمل لم يكن مرضياً. لقد كان ذلك واضحاً من أجزاء متفرقة مرت، عن غير قصد، من أفكاره إلى حديثه.

«إنني لا أرى الرجال. إنهم جميعاً في أعمالهم، في متاجرهم أو في مخازنهم. كان يتعين عليهم أن يكونوا هناك. لا أجد مأخذاً عليهم. مجرد أنه إذا كانت تعاليم القسيس أو كلماته في التذكير مُفيدة في أي شيء، فالرجال في حاجة إليها بقدر حاجة النساء إليها».

سألتْ ابنة الخال هولمان، «ألا تستطيع الذهاب إليهم في أماكن وجودهم وتذكرهم بامتيازاتهم وواجباتهم الدينية أيها القسيس؟» وقد كان جلياً أنها تفكر في أن كلمات زوجها لا يمكن مُطلقاً أن تكون في غير محلها.

قال وهو يهزّ رأسه، «لا! أنا أنظر في أمرهم آخذاً نفسي بعين الاعتبار، فإذا كانت هناك سحب في السماء وأنا وسط القشّ مُستعدّ

للتحميل، ومن المؤكد أن المطر سيهطل في الليل، فلا بد أن أشعر باستياء تجاه الأخ روبنسون إذا حضر إلى الحقل لكي يتحدث عن أمور جادة».

قالت فيليس، «ولكن على أي حال يا أبي، أنت تفعل خيراً للنساء وربما يقمن بتكرار ما قُلته لهن لأزواجهن وأطفالهن؟»

«من المأمول أن يفعلن ذلك، فأنا لا أستطيع الوصول إلى الرجال بشكل مباشر. ولكن النساء يمِلن إلى التلكؤ في القدوم إليّ لكي يضعن أشرطتهنّ وحليّهنّ، كما لو أنه كان بإمكانهن سماع الرسالة، التي أحملها إليهن، على أفضل وجه ممكن عندما يكنّ في ثيابهن الأنيقة. السيدة دوبسون اليوم - فيليس، أنا ممتنٌ أنك لا تكترثين بزينة الثياب!» توردت فيليس قليلاً في أثناء قولها، في صوت متواضع:

«ولكنني أهتم يا أبي. أخشى أنني أهتم. فكثيراً من الأحيان أتمنى لو كان بإمكاني ارتداء أشرطة ذات ألوان جميلة حول عنقي مثل بنات الإقطاعيين».

قالت زوجته، «إنه مجرد أمر طبيعي أيها القسيس! أنا نفسي لستُ أسمى من ألا أُعجب بثوب من الحرير أكثر من إعجابي بثوب من القطن».

قال بجدية، «إن حُبّ الثياب هو فتنة ومصيدة. الزينة الحقيقية هي في تواضع النفس وهدوء الروح.» وأضاف، كما لو أن فكرة مفاجئة خطرت في باله، «وأنا أيضاً، يا زوجتي، ارتكبت إثماً. أردت أن أسألك، ألا نستطيع النوم في الغرفة الرمادية بدلاً من غرفتنا؟»

سألت ابنة الخال هولمان، «ننام في الغرفة الرمادية؟ ... نُبدِّل غرفتنا في هذا الوقت من اليوم؟»

تابع، «نعم. فهذا سوف يخلصني من إغراءٍ يومي بالغضب. انظري إلى ذقني! لقد جرحتها صباح هذا اليوم، وجرحتها في يوم الأربعاء عندما كنت أحلق. لا أعرف كم مرة جرحتها في الآونة الأخيرة، وكل ذلك بسبب نفاد صبري عند رؤيتي تيموثي كوبر يعمل في الفناء».

قالت ابنة الخال هولمان، «إنه مجرد وضيع كسول! إنه لا يستحق أجره. هناك أشياء قليلة يستطيع القيام بعملها، وهو يُنجز ما يستطيع عمله بطريقة سيئة».

قال القسيس، «صحيح. إنه مجرد أبله، إن جاز التعبير، ومع ذلك لديه زوجة وأطفال».

قالت، «مزيد من الخزي له!»

«ولكن فات الأوان على تغيير ذلك. وإن طردتُه فلن يستأجره أي شخص آخر. ومع ذلك فليس في وسعي ألّا أراقبه في الصباح عندما يقوم بعمله ببطء متسكعاً هنا وهناك في الفناء. وأراقب وأراقب إلى أن يثور في داخلي الجانب الشرير من طبيعتي البشرية بقوة بسبب أسلوبه البليد، وأخشى أن أقوم يوماً ما بالنزول إليه وطرده من عمله – ناهيك عن الطريقة التي يجعلني فيها أجرح نفسي في أثناء حلاقتي. وبعدئذ سوف يكون مصير زوجته وأطفاله التضور جوعاً. أتمنى لو نستطيع الانتقال إلى الغرفة الرمادية».

لا أتذكر أكثر من ذلك بكثير بخصوص زيارتي الأولى إلى مزرعة الأمل. ذهبنا إلى كنيسة هيثبريدج، ونحن نسير ببطء وبشكل مهذب على طول الممرات الملونة بالأحمر والأسمر المصفرّ المميزة للخريف المقبل. مشى القسيس أمامنا بمسافة قصيرة ويداه وراء ظهره، ورأسه منحنٍ نحو الأسفل يفكر في شأن الخطبة التي سيلقيها أمام رعيته، على حد قول ابنة الخال هولمان. وكنا نحن نتحدث بصوت خفيض وبهدوء لكي لا نقطع عليه حبل أفكاره. ولكن لم يكن بوسعي عدم ملاحظة التحيات المتسمة بالاحترام التي كان يتلقاها في أثناء سيره، من الأغنياء والفقراء على حد سواء، تحيات كان يتقبلها بتلويحة من يده بأسلوب لطيف، لكن بدون الرد بكلمات. وعندما اقتربنا من البلدة، استطعت رؤية بعض الشبان يلقون نظرات إعجاب على فيليس ما جعلني أنظر أنا أيضاً. كانت ترتدي ثوباً أبيض، ومعطفاً قصيراً أسود من الحرير، تبعاً لأزياء الوقت الحاضر، وقلنسوة من القش مع شريط من خيط بني. كان ذلك كل شيء، لكن الألوان التي كان يحتاج إليها ثوبها كان يتمتع بها وجهها الجميل المفعم بالصحة. وقد جعل المشي وجنتيها تتفتحان مثل وردة. وكان بياض عينيها ذاته فيه مسحة زرقاء، وأبرزت رموشُها الداكنة عُمق العينين الزرقاوين ذاتهما. وكان شعرها الأصفر مرتباً بشكل منسدل إلى الدرجة التي يسمح بها تجعده. وإن لم تكن هي أدركت الإعجاب الذي أثارته، فأنا متأكد من أن ابنة الخال هولمان كانت تدركه حيث إنها كانت تبدو قاسية وفخورةً، بقدر ما يمكن أن يظهِر وجهها الهادئ، وهي تحرس كنزها، إلا أنها كانت مسرورة لأن الآخرين استطاعوا معرفة أنه كان كنزاً. كان يتعين عليّ العودة

إلى إلثام بعد ظهر ذلك اليوم لكي أكون مستعداً للقيام بعمل اليوم التالي. واكتشفت فيما بعد أن القسيس وعائلته كانوا جميعاً «مدرَّبين بالطريقة الروحانية»، فيما يتعلق بما إذا كان من الأفضل أن يطلبوا مني تكرار زياراتي إلى مزرعة الأمل، نظراً إلى أنني مضطرٌ إلى الذهاب إلى إلثام في يوم الأحد. على أي حال، لقد طلبوا مني ذلك بالفعل، وكنت أذهب لزيارتهم كلما سمحت ارتباطاتي بذلك، فقد كان السيد هولدزورث في هذه الحالة، كما هو دائماً، صديقاً لطيفاً ومتساهلاً. ولم يُبعده معارفي الجدد عمّا كنت أكنّه له من تقدير كبير وإعجاب بالغ. ويسعدني أن أقول إن لديّ مساحة في قلبي للجميع، وبقدر ما أستطيع أن أتذكر فقد واصلت الثناء على كل منهم أمام الآخر بطريقة اعتبرتها -لو كنت رجلاً أكبر سناً أعيش وسط أناس في العالم- غير حكيمة، علاوة على كونها سخيفة إلى حد ما. لقد كانت غير حكيمة بالتأكيد، ذلك أنها كانت ستؤدي حتماً إلى خيبة الأمل لو حدث أن تعرف بعضُهم إلى بعض، وربما أنها كانت سخيفة، على الرغم من أنني لا أعتقد أنّ أيّاً منا قد فكَّر في أنها كذلك في ذلك الوقت. لقد اعتاد القسيس الاستماع إلى أحاديثي بإنجازات السيد هولدزورث العديدة وبمغامراته الكثيرة في السفر، بأصدق اهتمام، وبكل رحابة صدر وحسن نية. وأحب السيد هولدزورث أيضاً سماع ما أقوله في شأن زياراتي إلى المزرعة، ووصفي لحياة بنات الخال هناك. لقد أحب ذلك، أقصد بقدر ما كان يحب أي شيء يكون مجرد سرد دون أن يُفضي إلى عمل.

وهكذا ذهبتُ إلى المزرعة، بالتأكيد، بمعدل مرة واحدة في الشهر خلال فصل الخريف. لقد كان سير الحياة هناك ساكناً وهادئاً

جداً، إلى درجة أنه لا يمكنني تذكر سوى حدث صغير واحد، أعتقد أنني لاحظته أكثر من أي شخص آخر: توقفت فيليس عن ارتداء المريلات التي كنت أمقتها دائماً. لا أعرف لماذا تم التخلص منها، لكنني اكتشفت في إحدى زياراتي أنها استبدلت بها مآزر كتان جميلة في الصباح، ومئزراً حريرياً أسودَ في فترة بعد الظهر. أما الثوب القطني الأزرق فقد أصبح شيئاً بُنيّاً مع دنوْ فصل الشتاء. وبدا هذا الأمر مثلما قرأت في أحد الكتب ذات مرة، حيث كان الانتقال فيه من الفراش الأزرق إلى الفراش البني يُعدّ حدثاً عائلياً مهماً.

مع اقتراب عيد الميلاد، جاء والدي العزيز لرؤيتي، ولكي يتشاور مع السيد هولدزورث بشأن تحسينات لِما أصبح يُعرف منذ ذلك الحين باسم «عجلة قيادة مانينغ». وكما أعتقد أنني ذكرت من قبل، فإن هولدزورث يكنّ احتراماً شديداً لوالدي، الذي كان موظفاً في ورشة الآلات الكبيرة ذاتها التي حصل فيها هولدزورث على تدريبة المهني، وهناك كثير من الطُّرف المتبادلة بينه وبين والدي بشأن أحد هؤلاء السادة المتدربين الذي اعتاد على الشروع بعمله في الحدادة مُرتدياً قفازات بيضاء من جلد «الشامواه» خشية إيذاء يديه. وكثيراً ما حدثني السيد هولدزورث ببعض أخبار والدي بوصفه يمتلك النوع ذاته من عبقرية الاختراع الميكانيكي التي كان يتمتع بها جورج ستيفنسون، وقد جاء والدي اليوم لكي يستشيره بشأن العديد من التحسينات، إضافة إلى عرض بالشراكة. لقد كان من دواعي سروري رؤية الاحترام المتبادل بين هذين الرجلين. السيد هولدزورث هو شابٌّ وسيمٌ وحادّ الذكاء وأنيق وموضع إعجاب جميع الشباب في إلثام. وكان والدي في أفضل ملابسه اللائقة، لكن

قديمة الطراز. وكان وجهه البسيط الحكيم مليئاً بالخطوط العميقة، إنها علامات الكد والتفكير. وكانت يداه مسودتين إلى حد لا تجدي معه نفعاً قوة الصابون والماء بسبب سنوات من العمل في المسبكة. وكان يتحدث بلهجة شمالية قوية، في حين كان في صوت السيد هولدزورث تشدقٌ خفيفٌ كما هو حال صوت الكثير من الجنوبيين، وكان معروفاً عنه في إلثام أنه شخص يتصرف باستعلاء.

على الرغم من أن معظم وقت فراغ والدي كان مملوءاً بأحاديث بالعمل الذي ذكرتُه، فقد كان يشعر أنه يتعين عليه عدم مغادرة إلثام دون الذهاب للتعبير عن احترامه للأقارب الذين كانوا لطيفين جداً مع ابنه. لذا فقد ركبنا، أنا وهو، قاطرة تسير على طول الخط غير المكتمل حتى هيثبريدج، وذهبنا لقضاء يوم في المزرعة، بناء على دعوة.

كان أمراً غريباً، لكنه سارٌّ بالنسبة إليّ، أن ألاحظ كيف بدا أن هذين الرجلين، اللذين مهد كل منهما السبيل إلى هذه المرحلة من حياته المختلفة اختلافاً تاماً عن حياة الآخر، قد التقيا معاً بالفطرة بعد نظرة واحدة مباشرة نظرها كل منهما في وجه صاحبه. لقد كان والدي رجلاً نحيلاً وقوياً، وطوله خمس أقدام وسبع بوصات. وكان القسيس عريض المنكبين، يتمتع بلون بشرة وردي صحي، ويبلغ طوله ست أقدام وبوصة واحدة. لم يكن أي منهما بصورة عامة كثير الكلام -ربما كان القسيس الأكثر كلاماً- لكنهما كانا يتحدثان كثيراً معاً. ذهب والدي إلى الحقول مع القسيس. وأظن أنني أراه الآن، ويداه خلف ظهره ويُصغي باهتمام شديد إلى جميع الشروحات بشأن

الفِلاحة، وبعمليات الزراعة المختلفة، ويرفع بين الفينة والأخرى واحدة من الأدوات، كما لو كان يقوم بذلك الأمر بشكل غير واعٍ، ويتفحصها بعينين مُدققتين، ويطرح من وقت إلى آخر سؤالاً يمكنني أن أرى أنّ رفيقه كان يَعتبر السؤال ذا صلة باهتماماتهما. بعدئذ عُدنا إلى تفقُّد الماشية، المُبيَّتة في حظائرها في انتظار العاصفة الثلجية التي كانت تخيم بلون أسود في الأفق الغربي، وتعلم والدي الأمور الخاصة بالأبقار بانتباه شديد كما لو كان ينوي التحول إلى مُزارع. لقد كان لديه دفتر صغير في جيبه اعتاد استخدامه لتسجيل إيضاحات وقياسات ميكانيكية، وتناوله ليدوِّن «ظهر مستقيم»، «خطم صغير»، «جذع خفيض»، ولا أدري ماذا أيضاً، تحت عنوان «بقرة». كان ناقداً جداً عند ماكنة قطع اللفت، وما دفعه في المقام الأول إلى الحديث هو حقيقة أنها لم تكن متقنة. وعندما دخلنا إلى المنزل، جلس مُفكراً وهادئاً برهة قصيرة، وقامت فيليس وأمها بعمل آخر التحضيرات لاحتساء الشاي، مع شيء من الاعتذار غير المنتبه له من ابنة الخال هولمان لأنها لم تُجلسنا في صالة الاستقبال الأفضل، لاعتقادها بأنها قد تكون باردة جداً في ليلة شديد البرودة. لم أكن أريد شيئاً أكثر من النار المطقطقة المتأججة التي كانت ترسل توهجاً يملأ كل «غرفة الأسرة»، وقد دفأت البلاط البارد كالثلج تحت أقدامنا، إلى أن بدا أنه ساخن أكثر من البساط القرمزي المفروش مباشرة أمام النار. بعد احتساء الشاي، وعندما كنا، أنا وفيليس، نتحدث معاً في سعادة غامرة، سمعت هتافاً تعذّر على ابنة الخال هولمان أن تكبته:

«ما خطب ذاك الرجل؟»

وعند النظر في الأرجاء، رأيت والدي يُخرِجُ عصاً مستقيمة من النار، وبعد دقيقة انتظار وتفحص للطرف المتفحم منها لكي يعرف ما إذا كانت ملائمة لغرضه، ذهب إلى الخزانة المصنوعة من الخشب الصلب، وأخذ يدعك حتى وصل إلى آخر درجة من البياض والنظافة، وبدأ يرسم بالعصا. لقد كان ذلك أفضل بديل متوافر لديه عن الطباشير أو القلم الفحمي، إذ إن قلم رصاص كتاب الجيب الذي يحمله لم يكن قوياً أو غامقاً بما فيه الكفاية لغرضه. وعندما فرغ من العمل، بدأ يشرحُ نموذجه الجديد لماكنة تقطيع اللفت، للقسيس الذي كان يُراقبه في صمت طوال الوقت. وفي تلك الأثناء، كانت ابنة الخال هولمان قد أخرجت منفضة غبار من أحد الأدراج، وحاولت في الخفاء، تحت ذريعة كونها مهتمة بالرسم بقدر اهتمام زوجها، مسح إحدى العلامات الخارجة عن الرسم لمعرفة مدى سهولة إزالتها، وما إذا كان ذلك سيترك خزانتها بيضاء كما كانت من قبل. بعدئذ أُرسِلَت فيليس لإحضار الكتاب الذي يتناول موضوع الديناميكا، وهو الذي استُشِرتُ بشأنه في أثناء زيارتي الأولى، وتعين على والدي تفسير العديد من الصعوبات التي شرحها بلغة واضحةٍ ووضوحَ عقله، مخطِّطاً رسومات بعصاه كلما كانت هناك حاجة إليها بوصفها رسومات توضيحية، والقسيس جالس ورأسه الثقيل مستندٌ إلى يديه، ومرفقاه على الطاولة، غير مدرك تقريباً لحضور فيليس التي كانت منحنية فوقه تُصغي بنهم وإحدى يديها على كتفه، تمتص المعلومات باهتمام مثل أبيها. شعرتُ بالأسف على ابنة الخال هولمان، وكنت قد شعرتُ بذلك بضع مرات من قبل، إذ إنها غير قادرة نهائياً حتى على فهم مدى الاستمتاع الذي

يشعر به زوجها وابنتها بالأنشطة الذهنية، ناهيك عن أنها هي نفسها ليس لديها أدنى درجة من الاهتمام بتلك الأنشطة، لذا فإنها كانت تُستبعَد بصورة حتمية من بعض اهتماماتها. فكرت بضع مرات في أنها كانت تشعر بقليل من الغيرة من ابنتها بوصفها رفيقاً ملائماً أكثر لزوجها مما كانت عليه هي نفسها، وتصورتُ أن القسيس ذاته كان مُدركاً لهذا الشعور، إذ إنني لاحظت تغييراً عرضياً مفاجئاً للموضوع، ورِقَّة عطف في صوته عند التحدث معها، ما كان يجعلها دائماً تبدو راضية وهادئة مرة أخرى. لا أعتقد أن فيليس أدركت قَطُّ هذه المشاعر الخفية البسيطة. ففي المقام الأول، كانت تُعامل والديها بإجلال تام إلى درجة أنها كانت تُصغي إلى كل واحد منهما كما لو كانا القديس بطرس والقديس بولس. وعلاوة على ذلك، فقد كانت دائماً تستغرق جداً في أي مسألة بين يديها إلى درجة تجعلها لا تفكر في تصرفات الآخرين ومظاهرهم.

إلا أنه كان بإمكاني في هذه الليلة أن أرى كم كانت تستهوي والدي، على الرغم من أنها لم تحاول أن تستهويه. لقد طرحتْ بضعة أسئلة أظهرت أنها كانت تتابع شرح والدي حتى تلك المرحلة. ومن الممكن، أيضاً، أن جمالها غير العادي كان له دور ما في هذا الانطباع الإيجابي عنها. ولكنه لم يتردد في التعبير عن إعجابه بها لأبيها وأمها في أثناء غيابها من الغرفة. ومنذ ذلك المساء حددتُ تاريخ بداية مشروع خاص بوالدي أطلعني عليه بعد بضعة أيام تلت ذلك المساء حيث كنا جالسين في غرفتي ثلاثية الزوايا في إلثام. واستهل الحديث، «لم أُفكر أبداً في أن أكون رجلاً ثرياً يا بول. ولكنني أعتقد أن ذلك قادم إلي. إن بعض الناس يحققون مكاسب كبيرة من ماكنتي

الجديدة (أسماها باسمها التقني)، ووصل الأمر بإليسون، من شركة بورو غرين وركس، إلى حد أن يطلب مني أن أكون شريكاً له».

قلتُ متشككاً، ومع ذلك منتشياً، «السيد إليسون القاضي! الذي يعيش في شارع كينغ ستريت؟ ياه، إنه يقود عربته!»

«نعم يا بني، جون إليسون. ولكن هذا لا يُشير إلى أنني سوف أقود عربتي. على الرغم من أنني أرغب في إغناء أمك عن المشي، إذ إنها لم تعد شابة كما كانت في السابق. لكن ذلك أمر بعيد جداً على أي حال. أعتقد أنني يُفترض أن أبدأ بثلث الأرباح. ربما تكون سبعمائة أو ربما تكون أكثر. أرغب في أن تكون لدي الصلاحية في تنفيذ بعض تصوراتي، فأنا أهتم بذلك أكثر من المال. وليس لدى إليسون أبناء، وبطبيعة الحال سينتقل العمل إليك مع مرور الوقت. بنات إليسون لسن سوى كائنات صغيرة، ومن غير المحتمل أن يكون لديهن أزواج بعد. وعندما يكون لديهن أزواج، ربما لن تكون أعمالهم في مجال الأعمال الميكانيكية. سوف تكون فرصة ملائمة بالنسبة إليك يا بُني إن كُنت مثابراً. وعلى الرغم من أنني مُدرك أنك لست شخصاً بارعاً في مجال الاختراعات، إلا أن هناك الكثيرين الذين ينجحون بشكل أفضل دون أن يكون لديهم شغف بشيء لا يفهمونه أو لم يسبق لهم فهمه قَطُّ. إنه لمن دواعي سروري رؤية أن ابْنَتَيْ خال أمك هما شخصيتان استثنائيتان إلى تلك الدرجة في الإدراك والطيبة. وقد دخل القسيس قلبي وأحببته مثل أخ. وهي تتمتع بهيئة أنثوية تماماً، وأنا أقول لك بمنتهى الصراحة يا بول، سيكون يوماً سعيداً جداً بالنسبة إليّ إن استطعت أن تأتي في أي وقت وتقول لي إن فيليس هولمان ترغب في أن تكون ابنتي. أعتقد

أن تلك الفتاة وإن كانت لا تملك شيئاً، فإنها ستكون سبب نجاح زوجها، وسوف يكون لديها فيما بعد منزل وأراضٍ، وقد تكون نداً لها في الثروة إن تم كل شيء على ما يرام».

كان وجهي يتحول إلى اللون الأحمر مثل لون النار. لم أعرف ماذا أقول، ومع ذلك أردت قول شيء ما. ولكن بدت فكرة أن تكون هي زوجةً لي في يوم ما في المستقبل غريبة جداً، عندما تحدث والدي بشأنها أولَ مرة، على الرغم من أنها كانت قد خطرت في ذهني أحياناً كثيرة. لاحَظَ أبي ارتباكي، وقال بابتسامة مخفية:

«حسناً يا بُني، ما قولك بخصوص خطط والدك؟ من المؤكد أنك صغير، لكن عندما كنت في عمرك، كان من الممكن أن أتقدم مانحاً يدي لو فكرت في فرصة الزواج بالفتاة التي أهتم بها...».

سألتُ مصدوماً قليلاً من تغير نبرة صوته، «أمي؟»

«لا! ليست أمك. إن أمك امرأة جيدة جداً... ليس هناك من هي أفضل منها. لا! إن الفتاة التي كنت أهتم بها في التاسعة عشرة من عمري لم تعرف أبداً كم كنت أحبها، وبعد سنوات قليلة ماتت، ولم تعرف قطُّ. أعتقد أنه كان من الممكن أن تكون مسرورة لو عرفَتْ ذلك الأمر، «مولّي المسكينة». ولكنني اضطررت إلى ترك المكان الذي كنا نعيش فيه لكي أحاول كسب قوت يومي، وكنت أنوي العودة، لكن قبل أن أتمكن من ذلك، كانت قد ماتت ورحلت: لم أعد قطُّ إلى هناك منذ ذلك الحين. ولكن يا بُني، إن كنت مولعاً بفيليس هولمان وبإمكانك جعلها مولعة بك، فسوف تجري الأمور بطريقة مختلفة، بالنسبة إليك يا بول، عمّا جرى مع والدك».

تشاورت مع نفسي بسرعة كبيرة، ووصلت إلى نتيجة واضحة. وقلت، «أبي، إذا حدث وأن أحببتُ فيليس كثيراً جداً، فإنها لن تحبني أبداً. أنا أحبها بقدر ما يُمكنني أن أحب أختي. وهي تحبني كما لو كنت أخاها، بل أخاها الأصغر».

كنت قادراً على رؤية بعض الانزعاج في ملامح وجه والدي. فقلتُ:

«كما ترى إنها ذكية جداً فتبدو أشبه برجل من امرأة. إنها تعرف اللاتينية واليونانية».

وكان تعليق والدي على ذلك، «سوف تنساهما إذا كان لديها منزل مليء بالأطفال».

«ولكنها تعرف أشياء كثيرة إلى جانب ذلك، وهي حكيمة إضافة إلى كونها مثقفة. لقد أمضت وقتاً طويلاً جداً مع والدها. لن تفكر كثيراً فيَّ أبداً، وأنا أرغب في أن تفكر زوجتي كثيراً جداً في زوجها».

ردّ والدي، «ليست المعرفة بالكتب أو الرغبة فيها هي التي تجعل الزوجة تفكر كثيراً أو قليلاً في زوجها»، وكان من الواضح أنه لم يكن راغباً في التخلي عن مشروع تَجَذَّرَ بعمق في عقله. «إنه أمر لا أعرف كيف أصفه بطريقة صحيحة - إذا كان يتمتع بالرجولة، وعاقلاً، وصريحاً، وأعتقد أنك كذلك يا بُني».

قلتُ مُبتسماً، «لا أعتقد أنني أرغب في زوجة أطول مني يا أبي». وابتسم هو أيضاً، لكن ليس بحماسة.

قال بعد فترة توقف، «حسناً، إنني أُفكر في الأمر منذ أيام قليلة فحسب، ولكنني أصبحت مُغرماً بالفكرة كما لو كانت مُحرِّكاً جديداً عندما كنت أخطط له. وفكرت في نفسي، ها هو ابننا بول ولد عاقل وطيب، لم يسبق له قط أن كان مصدر غضب أو إزعاج لأمه أو لي. وهناك عمل جيد متوافر أمامه في سن التاسعة عشرة، ليس سيّئ المظهر، على الرغم من أنه قد لا يوصف بأنه وسيم، وها هي ابنة خاله، ليست ابنة خال شديدة القرابة، لكن يمكن أن توصف أنها جذابة تماماً، في عمر السابعة عشرة، طيبة وصادقة، وذات تنشئة حسنة، وهي تعمل بيديها إضافة إلى عقلها. وهي أيضاً مثقفة، لكن هذا أمر ليس من الممكن تجنبه، ويعدّ من سوء حظها، ولا ذنب لها فيه، نظراً إلى أنّها الابنة الوحيدة لقسيس. وكما قلتُ من قبل، بمجرد أن تصبح زوجة وربة منزل، فأنا متأكد أنها سوف تنسى كل ذلك. ولديها ثروة جيدة تتكون من أرض ومنزل عندما تكون مشيئة الرب أن يختار والديها لجواره. ولديها عينان بجمال عيني المسكينة مولّي، وتورُّد يأتي ويذهب على الجلد الأبيض مثل بياض الحليب، وفم جميل...»

«ياه، يا سيد مانينغ، من هي السيدة الجميلة التي تقوم بوصفها؟» طَرَحَ ذلك السؤال السيد هولدزورث الذي وصل بسرعة وبشكل مفاجئ إلى محادثتنا الانفرادية، والتقط كلمات والدي الأخيرة في أثناء دخوله الغرفة. شعرنا كلانا، أنا ووالدي، بالخجل. لقد كان موضوعاً من الغريب جداً التحدث بشأنه بالنسبة إلينا. ولكن والدي كان رجلاً صريحاً بسيطاً، فقال الحقيقة.

«كنت أحدث بول بما عرضه إليسون، وأبين له كم يُعدّ فرصة ملائمة بالنسبة إليه...».

قال هولدزورث، «أتمنى لو سنحت لي فرصة جيدة كهذه. لكن هل لهذا العمل فمٌ جميل؟»

قال والدي، «دائماً لديك الكثير من الطرائف يا سيد هولدزورث. كنت أريد أن أقول إنه إذا كان هو وفيليس هولمان يريدان تكوين أسرة معاً، فلن أضع العراقيل أمامهما».

قال السيد هولدزورث، «فيليس هولمان! هل هي ابنة قسيس المزرعة هناك في هيثبريدج؟ هل كنت أساعد في مسار حب حقيقي من خلال السماح لك بالذهاب إلى هناك مرات عديدة؟ لم أعرف شيئاً من هذا الأمر؟»

قلتُ منزعجاً أكثر مما شئتُ إظهاره، «ليس هناك شيء لتعرفه. لا حبَّ حقيقياً، في هذه الحالة، أكثر مما يمكن أن يكون بين أي أخ وأخته. كنت أقول لوالدي إنها لن تُفكر فيَّ أبداً. إنها أطول مني وأذكى مني بكثير. وأنا أفضِّل أن أكون أطول من زوجتي ومثقّف أكثر منها، عندما تكون لدي زوجة».

«إنها هي إذن، صاحبة الفم الجميل التي تحدث بشأنها والدك؟ يُفترض أن أُظن أن ذلك نقيض الذكاء والتعلم. لكن يتعين عليّ تقديم الاعتذار عن دخولي المفاجئ في آخر ليلة لك. أتيتُ في عمل لوالدك».

بعدئذ بدأ يتحدث هو ووالدي بأمور كثيرة لم يكن لدي اهتمام بها في ذلك الحين، وبدأت أسترجع في ذهني محادثتي مع

والدي. وكلما فكرت أكثر في الأمر، كنت أشعر أكثر بأنني قلتُ الحقيقة في شأن مشاعري نحو فيليس هولمان. لقد أحببتها بصدق كأخت، لكن لا يمكنني أن أكون مولعاً بها بصفتها زوجة لي. والأدهى من ذلك هو أنني لم أكن قادراً على التفكير في تنازلها... نعم، تلك هي الكلمة بالضبط... تنازلها للزواج مني. وأفقتُ من تفكيري الحالم في شأن ما يُفترض أن تكون عليه زوجتي المحتملة بسبب سماع مديح والدي الحماسي للقسيس، بوصفه شخصية استثنائية. ولا يمكنني أبداً معرفة كيف انتقلا من الحديث عن قُطر عجلات القيادة إلى موضوع أسرة هولمان. ولكنني رأيت أن مدائح والدي القوية كانت تثير بعض الفضول في عقل السيد هولدزورث. وفي الواقع إنه قال، في صوت فيه عتاب تقريباً:

«ياه، يا بول. لم تُخبرني قَطُّ من أي نوع من الرجال كان قريبك القسيس هذا!»

قلتُ، «لا أعرف أنني اكتشفت ذلك الأمر يا سيدي. ولكن حتى لو كنت اكتشفته، فلا أعتقد أنك كنتَ ستصغي إليَّ كما أصغيت إلى والدي».

رد السيد هولدزورث ضاحكاً، «لا! على الأرجح لا يا صديقي العزيز». ومرة أخرى ومجدداً، رأيت كم كان وجهه صافياً، ووسيماً، وبهياً. وعلى الرغم من أنني كنت منزعجاً منه في ذلك المساء، بسبب قدومه المفاجئ وسماعه المسألة الشخصية التي أفضى بها والدي بسلامة نية، إلا أن بطلي استعاد سلطانه عليَّ بضحكته المرحة المشرقة.

ولو لم يستعد مكانته القديمة في تلك الليلة، لكان سيستعيدها في نهار اليوم التالي بعد سفر والدي، عندما تحدث السيد هولدزورث بشأن والدي بقدر كبير من الاحترام لشخصيته، وبقدر كبير من الإعجاب الخالي من الحسد بشأن عبقريته الميكانيكية الرائعة، إلى درجة أنني اضطررت، دون وعي تقريباً، إلى أن أقول، «شكراً لك يا سيدي. أنا ممتنّ جدّاً لك».

«أوه، لا إطلاقاً. إنني أقول الحقيقة فحسب. ها هو ذا عامل من بيرمنغهام، علم نفسه تعليماً ذاتياً، إن جاز قول ذلك – ولم يكن له أبداً صلة مع أصحاب عقول مُحرِّضة، أو كان لديه ما يُفترض أن يزوده به السفرُ والاتصال بالعالم من مزايا – ينجح في تحويل أفكاره إلى فولاذ وحديد، صانعاً اسماً علميّاً لنفسه، وثروة إذا راق له أن يعمل من أجل المال. ويحافظ على تفانيه في السعي لتحقيق هدفه، وعلى بساطة أسلوبه الرائعة. إنني أضيق ذرعاً عند التفكير في كل تعليمي المكلف، وسفري إلى هنا وهناك، وأكوام كتبي العلمية، ولم أصنع شيئاً جديراً بأن أتحدث بشأنه. ولكن من الواضح أنها خصائص جيدة تجري في الدم. فها هو السيد هولمان قريبك ابن خالك، يشبهه إلى حد بعيد».

قلتُ، «لكنه ابن خال لمجرد أنه متزوج من ابنة خال أمي من الدرجة الثانية».

«إن ذلك يوجه ضربة عنيفة في الرأس لنظرية جميلة، وبشكل مُضاعف أيضاً. إنني أرغب في التعرف إلى هولمان».

قلتُ بحماس، «أنا متأكد من أنهم سيكونون مسرورين جداً برؤيتك في مزرعة الأمل. في الواقع هم طلبوا مني مرات عديدة أن أُحضرك: إلا أنني ظننت أنك ستجد الأمر مملاً».

«على الإطلاق، لا. إلا أنني لا أستطيع الذهاب بعد، حتى وإن حصلتَ لي على دعوة، ذلك أن الشركة تريدني أن أذهب إلى «فالي»، وأن أُتفحص الأرض قليلاً من أجلهم، لمعرفة ما إذا كانت صالحة لإقامة خط فرعي. إنها مهمة يمكن أن تأخذني بعيداً بعضَ الوقت. ولكن يُفترض أن أتنقل جيئة وذهاباً، وأنت مؤهل تماماً للقيام بما يلزم في غيابي، وربما يكون العمل الوحيد الذي لا تستطيع القيام به هو منع جيفونز العجوز من الشراب». وواصل إعطائي توجيهات بشأن إدارة الموظفين على الخط، ولم يُقَلْ أي شيء آخر بعدئذ، أو طوال عدة أشهر، بخصوص ذهابه إلى مزرعة الأمل. ذهب إلى «فالي»، وهو وادٍ معتم بسبب الظلال التي كانت تغطيه، حيث بدا أن الشمس تغرب وراء التلال قبل الساعة الرابعة بعد الظهر في منتصف الصيف. وربما كان هذا هو الذي تسبب في نوبة الحمى منخفضة الحرارة التي أصيبَ بها فوراً بعد بداية السنة الجديدة. لقد كان مريضاً جداً عدةَ أسابيع، حوالى عدة أشهر. وقد حضرت أخت له متزوجة من لندن -وهي قريبته الوحيدة على ما أعتقد- لكي تقوم على رعايته. وكنتُ أنا أذهب لزيارته كلما استطعت لكي أزوده بما أسماه «أخباراً ذكورية». وهي تقارير عن التقدم الذي أحرزناه في الخط، وإنه لمن دواعي سروري أن أقول إنني كنت قادراً على مواصلة العمل في غيابه، بالطريقة التدريجية البطيئة التي كانت ملائمة أكثر للشركة، في الوقت الذي كانت فيه

التجارة تمر بحالة ضعف، والنقود باهظة الكلفة في السوق. وبطبيعة الحال، مع هذا الإشغال لوقت فراغي الهزيل، فلم أذهب كثيراً إلى مزرعة الأمل. وفي المرات التي ذهبت فيها، كان يتم استقبالي بترحاب شديد، وكانت هناك استفسارات كثيرة عن مرض هولدزورث والتقدم المُحرَز في تعافيه.

بعد وقت طويل، أظن في شهر حزيران/ يونيو، كان قد تعافى بشكل كافٍ جعله قادراً على العودة إلى مسكنه في إلثام واستئناف عمله بشكل جزئي، على الأقل. وقد اضطرت أخته، السيدة روبنسون، إلى تركه قبل بضعة أسابيع بسبب انتشار مرض مُعدٍ بين أطفالها. وطوال الوقت الذي شاهدت فيه السيد هولدزورث في غرف النُزل الصغير في هينسليديل، حيث كنت معتاداً على النظر إليه بوصفه شخصاً عليلاً، لم أكن واعياً لما تسببت به الحمى من تقلقل واضح على صحته. ولكن بمجرد عودته إلى مسكنه، حيث كنت أراه دائماً في الأيام السابقة مرحاً وفصيحاً وعازماً ونشيطاً، فقد هبطت معنوياتي بسبب التغيير الذي أصاب شخصاً لطالما نظرت إليه بمشاعر قوية من الإعجاب بمودة. لقد كان يغرق في صمت وقنوط بعد أقل مجهود. وبدا كما لو أنه لم يكن قادراً على اتخاذ أي قرار بشأن أي عمل، أو كان يفتقر إلى القوة لتنفيذ ما يرمي إليه في حال تمكَّن من اتخاذ قرار بعمل شيء ما. وبطبيعة الحال، لم يكن ذلك سوى حالة طبيعية لنقاهة بطيئة بعد الإصابة بمرض حادّ. ولكنني لم أكن أعرف ذلك الأمر حينئذ، وربما أنني قدمتُ وصفاً لحالته جعلها تبدو أكثر خطورة مما هي عليه، إلى أقربائي اللطيفين في مزرعة الأمل، والذين فكروا فوراً، بأسلوبهم الحماسي والبسيط والجاد، في المساعدة الوحيدة التي كان بإمكانهم تقديمها.

قال القسيس، «أحضره إلى هنا. إن جودة هوائنا يُضرب بها المثل، وأيام حزيران/ يونيو رائعة. ويمكنه قضاء وقته متجولاً في حقل القش، فتكون الروائح العطرة بلسماً في حد ذاتها، وأفضل من الدواء».

وقالت ابنة الخال هولمان، التي كانت تنتظر بفارغ الصبر انتهاء زوجها من جملته، «وأخبره أن هناك حليباً جديداً وبيضاً طازجاً متوافران عند الطلب، فمن حسن الحظ أن ديزي ولدت توّاً، وحليبها طيب دوماً مثل قشدة البقرات الأخريات، وهناك الغرفة المربعة النقش التي تسطع فيها أشعة شمس الصباح بشكل كامل». لم تقل فيليس شيئاً، لكنها بدت مهتمة بالمشروع بقدر اهتمام الآخرين. أخذتُ الأمر على عاتقي. أردتهم أن يرونه، وأردته أن يراهم. واقترحت عليه ذلك عندما وصلتُ إلى المنزل. لقد كان ضعيفاً جداً بعد إنهاك اليوم إلى درجة لا تجعله مستعدّاً لبذل ذلك القدر القليل من الجهد اللازم للذهاب وسط الغرباء. وخيب أملي بامتناعه، تقريباً، عن قبول الدعوة التي جئت بها. كان الوضع مختلفاً في صباح اليوم التالي. اعتذر عن فظاظته في الليلة السابقة، وأخبرني بأنه سوف يرتب كل شيء لكي يكون جاهزاً للذهاب معي إلى مزرعة الأمل في يوم السبت التالي.

قال، «لا بد من أن ترافقني يا مانينغ. لقد كنتُ في السابق شخصاً جسوراً جداً كما يجب أن أكون، وكنت أحب المرور خلال الغرباء وأشق طريقي بينهم، لكنني منذ مرضي وأنا مثل فتاة، تقريباً، إذ أتصور أنني أُصبح ساخناً وبارداً من الخجل، مثلهن».

وهكذا تم ترتيب الأمر. كان علينا الذهاب إلى مزرعة الأمل بعد ظهر يوم السبت. وكان مفهوماً أيضاً أنه إذا كان الهواء والحياة هناك ملائمين للسيد هولدزورث، فسوف يمكث أسبوعاً أو عشرة أيام، يقوم فيها بما يستطيع القيام به من عمل عند نهاية الخط، بينما أحل أنا محله في إلثام بأفضل ما أستطيع. بدأت أشعر بشيء من التوتر مع اقتراب الوقت، وتساءلت كيف سيتفق هولدزورث الذكي مع أسرة القسيس الغريبة الهادئة، وما إذا كان سيحبهم، وما إذا كانوا سيحبونه بعاداته نصف الأجنبية. حاولت تهيئته، من خلال إخباره بين الفينة والأخرى بأشياء صغيرة حول مجريات الأمور في مزرعة الأمل.

قال السيد هولدزورث، «أفهم يا مانينغ أنك لا تعتقد أنني صالح بشكل كاف بالنسبة إلى أصدقائك. قل ذلك بصراحة يا رجل».

أجبتُ بجرأة، «لا. أعتقد أنك صالح، لكنني لا أعرف إن كان ما تتمتع به من صلاح مطابق تماماً للصلاح الذي يتمتعون به».

قال السيد هولدزورث، «وقد اكتشفتَ مسبقاً أن هناك فرصة أكبر لعدم الاتفاق بين 'نوعي الصلاح'، فلكل منهما فكرته الخاصة في الصواب، مقارنة بنوع معين من الصلاح ودرجة معتدلة من سوء الخُلق - هل تنشأ الأخيرة في كثير من الأحيان عن عدم مبالاة بالصواب؟»

قلتُ، «لا أدري. أعتقد أنك تتحدث بأمور ميتافيزيقية، وأنا متأكد من أن ذلك سيئ لك».

قال، «’عندما يتحدث رجل إليك بطريقة لا تفهمها بأمر لا يفهمه هو، فتلك هي الميتافيزيقيا‘. أنت تذكر يا مانينغ تعريف المهرج، أليس كذلك؟»

قلتُ، «لا، لا أذكره. لكن ما أفهمه هو أن عليك أن تذهب إلى الفراش وتُخبرني في أي ساعة ينبغي أن تبدأ رحلتك يوم غد حتى أذهب إلى قرية هيبورث، فأقوم بعمل ما يلزم لكتابة تلك الرسائل، التي تحدثنا بشأنها صباح هذا اليوم».

«انتظر حتى الغد، ودعنا نرى كيف سيبدو ذلك اليوم». قال ذلك في تردد متخاذل بيّن لي كم كان متعباً على نحو مُفرط، فذهبت في سبيلي. لقد كان صباح اليوم التالي صافياً ومشمساً وجميلاً، ذلك الحال المثالي بالضبط ليوم من أيام بداية فصل الصيف. وكان السيد هولدزورث ينتظر بفارغ الصبر الذهاب إلى الريف. لقد أعاد إليه الصباح نشاطه وقوته، ومِن ثَمَّ توقه إلى الذهاب. كنتُ خائفاً من أن نكون ذاهبين إلى مزرعة أقاربي في وقت مبكر جداً، أبكر من الوقت الذي يمكن أن يتوقعوا قدومنا فيه. ولكن ما عساني أفعل مع رجل كهذا مُضجر ومتحمس كما كان حال هولدزورث في صباح ذلك اليوم؟ وصلنا إلى مزرعة الأمل قبل جفاف الندى في الجانب الظليل من الممر. وكان كلب المنزل الكبير طليقاً ينعم بالشمس قرب الباب الجانبي المُغلق، وقد تفاجأتُ من كون هذا الباب مُغلقاً، إذ إنه كان مفتوحاً طوال فصل الصيف من الصباح حتى المساء. ولكنه لم يكن مقفولاً. فتحته، والكلب روفر يراقبني بعينين مترددتين بين الريبة والثقة. لقد كانت الغرفة فارغة.

قلتُ، «لا أعرف أين يمكن أن يكونوا. ولكن ادخلْ واجلسْ في أثناء ذهابي وبحثي عنهم. لا بد أنك مُتعب».

قال، «ليس أنا. إن الهواء اللطيف المنعش مثل ألف كأس شراب مُنشط. إضافة إلى ذلك، فإن هذه الغرفة دافئة، ورائحتها من رماد الحطب النفاذ ذاك. ماذا سنفعل؟»

«نذهب إلى المطبخ في الناحية الأخرى. سوف تخبرنا بيتّي أين هم». وهكذا ذهبنا حول فناء المزرعة، يُرافقنا روفر انطلاقاً من إحساس قوي بالواجب. كانت بيتّي تغسل قدور الحليب في مياه ينبوع مياه باردة مُبقبقة تجري على نحو مستمر وتتدفق داخل حوض صخري، وتخرج منه. لقد كانت تقوم بمعظم عملها المتعلق بالمطبخ في الهواء الطلق في مثل هذا الطقس.

قالت، «إيه، يا إلهي! القسيس وزوجته في هورنباي! لم يُفكرا على الإطلاق أنكما ستحضران في وقت مبكر كهذا! لدى السيدة بعض المهام التي ينبغي لها أن تقوم بها، واعتقدتْ أنها ستذهب سيراً على الأقدام مع القسيس وتعود قبل وقت الغداء».

قلت، «ألم يتوقعا حضورنا على الغداء؟»

قالت، «حسناً، يُحتمل أنهما توقعا، ويحتمل أنهما لم يتوقعا. لقد قالت لي السيدة إن لحم الحَمَل البارد سيفي بالغرض إن لم تحضرا. وعليَّ أن أسلق دجاجة وبعض اللحم المقدَّد إن حضرتما، لذا فسوف أذهب وأقوم بعمل ذلك الآن، لأنه من الصعب غليُ اللحم المقدَّد فترة كافية».

كان السيد هولدزورث يكوّن صداقة مع روفر، وقال، «وهل ذهبت فيليس أيضاً؟»

قالت، «لا! إنها في مكان ما حولنا. أعتقد أنكما ستجدانها في حديقة المطبخ، تجمع بازلّاء».

ترك هولدزورث فجأة لعبه مع الكلب وقال، «فلنذهب إلى هناك». وهكذا سرتُ في المقدمة نحو حديقة المطبخ التي كانت تبدو عليها البشائر الأولى لمحصول صيف وافر من الخضروات والفواكه. ومن المحتمل أنه لم يكن يُعتنى بها كثيراً مثل أجزاء أخرى من المزرعة، إلا أن العناية بها كانت أفضل من العناية بمعظم حدائق المطابخ التابعة لمنازل المزارع. وكان هناك صفوف من الأزهار على طول كل جانب من جوانب الممرات المفروشة بالحصى، وكان هناك مأوى قديم في الجانب الشمالي مُغطى بتشكيلة منوعة إلى حد ما من أشجار الفاكهة. وكان هناك أيضاً منحدر تصل نهايته إلى بركة الأسماك، حيث أحواض كبيرة من الفراولة. ونمت شجيرات توت العُلِّيقْ وشجيرات الورد حيثما توافرت مساحة لها، فبدت كأنها زُرعت عرَضياً. وامتدت صفوف طويلة من البازلّاء متعامدة مع الممر الرئيسي، ورأيت فيليس منحنية في الأسفل بينها قبل أن ترانا هي. وقفت فور سماعها صوت جرش خطواتنا على الحصى، وتعرفت إلينا بعد تظليل عينيها من الشمس. وقفت ساكنة تماماً لحظةً، ثمّ توجهت نحونا ببطء، متوردة قليلاً بسبب خجل واضح. لم يسبق لي أن رأيت فيليس خجولة من قبل.

قلتُ فور مُصافحتي لها، «هذا هو السيد هولدزورث يا فيليس». رفعت عينيها ونظرت إليه نظرة سريعة، ثم نظرت نحو

الأسفل وقد تورّدت أكثر من ذي قبل بسبب تصرفه الرسمي إلى حد كبير، المتمثل في رفع قبعته والانحناء، فلم يُشاهَد مثل هذا الأسلوب في التصرف من قبل في مزرعة الأمل.

قالت، «لقد خرج والدي ووالدتي. سوف يكونان آسفين جداً. لم تُرسل رسالة يا بول، كما وعدتَ أن تفعل».

قال السيد هولدزورث مُدركاً ما كانت تقصد كما لو أنها عبرت عنه بشكل كامل بالكلام، «لقد كان خطئي. فأنا لم أتخلَّ بعدُ عن جميع امتيازاتي بوصفي مريض، والتردد هو واحد منها. في الليلة الماضية، عندما سألني ابن عمتك في أي وقت سننطلق، لم أستطع اتخاذ قرار».

بدت فيليس غير قادرة على تحديد ماذا ستفعل بنا، فحاولتُ مساعدتها،

«هل انتهيت من جمع البازلّاء؟» قلتُ ذلك وأنا أمسك بالسلة نصف الممتلئة التي كانت تحملها في يدها بصورة غير واعية. ثمّ أضفت، «أم تسمحين لنا بالبقاء ومساعدتك؟»

قالت، «إن شئتما فعل ذلك». وأضافت مُحَدِّثةً هولدزورث، «لكن ربما سوف يُتعبك ذلك يا سيدي؟»

قال السيد هولدزورث، «لن يتعبني على الإطلاق. بل سيعيدني عشرين سنة إلى الوراء في حياتي، عندما كنت معتاداً على جمع البازلّاء في حديقة جدي. هل يمكنني أكل بعضٍ منها في أثناء جمعها؟»

قالت، «بالتأكيد يا سيدي. لكن إن ذهبت إلى حوض الفراولة فستعثر على بعض حبات الفراولة الناضجة، ويستطيع بول أن يريك أين هي».

قال، «أخشى أنك لا تثقين بي. أُؤكد لك أنني أعرف بدقة مدى الامتلاء المناسب تماماً لجمع البازلّاء. إنني أحرص بشدة على عدم قطفها إذا كانت غير ناضجة. إنني لن أُطرَد لأنني غير مناسب للقيام بعملي». لم تكن فيليس معتادة على أسلوب الحديث هذا الأقرب إلى المزاح، فنظرت لحظةً كما لو أنها رغبت في دفع التهمة المازحة بعدم الثقة عن نفسها، لكن انتهى بها الأمر إلى عدم قول كلمة واحدة. قمنا جميعنا بقطف البازلّاء، وانشغلنا بذلك صامتين خلال الدقائق الخمس التالية. ثمّ رفع هولدزورث نفسه من بين الصفوف، وقال بقليل من التعب،

«أخشى أنّ عليَّ أن أُضرِب عن العمل، فأنا لستُ قوياً كما تصورتُ». شعرت فيليس بندم شديد فوراً. فقد بدا في الواقع شاحباً، ولامت نفسها لسماحها له بمساعدتها.

قالت، «لقد كان ذلك تصرفاً أرعن مني. لم أعرف... ظننتُ أنك أحببت القيام بذلك حقاً. كان عليَّ أن أعرض عليكما أكل شيء ما يا سيدي! أوه. لقد جمعنا ما فيه الكفاية يا بول. كم كُنتُ غبية بنسياني أن السيد هولدزورث كان مريضاً!» وتقدَّمتنا نحو المنزل متعجلةً في حياء. دخلنا إلى المنزل وقامت بتحريك كرسي مريح ثقيل إلى الأمام، فغاص فيه هولدزورث مسروراً أيما سرور. ثم قامت، برشاقة وسرعة هادئة، بجلب صينية صغيرة ووضعت عليها نبيذاً،

وقطعة كعك، وخبزاً تم طهيه في المنزل، وزبدة مخفوقة حديثاً. ثمّ وقفتْ قلقة بعض الشيء إلى أن استعاد وجه السيد هولدزورث لونه بعد قضمة ورشفة. لقد كان يوشك أن يُغمى عليه، ما جعله يُقدّم الاعتذار ضاحكاً لأنه جعلنا نشعر بهلع. ولكن بعدئذ رجعت فيليس عما بدر منها من اهتمام ورعاية بريئة، فاستردت الخجل الفاتر المُعتاد لديها عندما يُلقى بها، أولّ مرّة، في صحبة غرباء. ثمّ أحضرتْ صحيفة المقاطعة الصادرة في الأسبوع الماضي (التي كان هولدزورث قد قرأها منذ خمسة أيام)، وانسحبت بهدوء. ثمّ استراح في تراخٍ، ومال إلى الوراء ليسند ظهره وأغلق عينيه كما لو كان سيخلدُ إلى النوم. تسللتُ إلى المطبخ وراء فيليس، لكنها كانت قد انعطفت حول زاوية المنزل في الخارج، فوجدتها جالسة ومعها سلتها المحتوية على البازلّاء ووعاء كانت تُقشِّر فيه البازلّاء. وكان الكلب روفر ممدداً عند قدميها ويقوم بين الفينة والأخرى بمهاجمة الذباب فجأة. ذهبتُ إليها، وحاولتُ مساعدتها، إلا أن حبات البازلّاء الطازجة المقرمشة اللذيذة كانت تجد طريقها، بطريقة ما، نحو فمي بشكل متكرر أكثر مما كانت تذهب إلى السلة، وهنا تحدثنا معاً في نبرة خفيضة، خوفاً من سماع صوتنا من خلال النوافذ المفتوحة «لغرفة الأسرة» حيث كان هولدزورث يستريح.

سألتُ، «ألا تعتقدين أنه وسيم؟»

أجابت، «ربما.. بلى.. لم أنظر إليه إلا قليلاً. لكن ألا يبدو مثل أجنبي إلى حد كبير؟»

قلتُ أنا، «بلى، إنه يقُصُّ شعره على طراز أجنبي».

قالت، «أُحبُ أن يبدو الإنجليزي كرجل إنجليزي».

قلتُ، «لا أعتقد أنه يُفكر في الأمر كثيراً. يقول إنه بدأ بتلك الطريقة عندما كان في إيطاليا، لأن كل شخص كان يقص شعره هناك هكذا، وكان من الطبيعي أن يستمر في قصه بتلك الطريقة في إنجلترا».

قالت، «ليس مبرِّراً أنه بدأها في إيطاليا، لأن كل شخص هناك يقصُّ شعره بتلك الطريقة، فكل شخص هنا يقصُّ شعره بشكل مختلف».

شعرت بقليل من الإهانة بقيام فيليس بالبحث بطريقة منطقية عن عيوب لصديقي، فقررت تغيير الموضوع.

قلتُ، «متى ستعود والدتك إلى المنزل؟»

«أظن أنها قد تحضر في أي وقت الآن. إلا أنّ عليها أن تذهب وتقابل السيدة مورتون، التي كانت مريضة، وربما تطلب منها أن تبقى ولا تأتي إلى المنزل حتى موعد الغداء. ألا تعتقد أنه ينبغي لك أن تذهب وترى كيف تسير أمور السيد هولدزورث يا بول؟ فربما يُغمى عليه مرة أخرى».

ذهبت بناء على طلبها، إلا أنه لم تكن هناك ضرورة إلى ذلك. فقد كان السيد هولدزورث واقفاً بالقرب من النافذة ويداه في جيبيه، ومن الواضح أنه كان ينظر إلينا. استدار عندما دخلتُ.

قال، «إذن، يا بول، تلك هي الفتاة التي وجدتُ والدك الطيب يُخطط لتكون زوجتك في تلك الأمسية عندما قاطعتكما!

هل ما زلت مُصمماً على ادعاء الخجل ذاته؟ لم يبدُ الأمر كذلك قبل لحظات».

أجبت بثبات، «أنا وفيليس متفاهمان. إننا مثل أخ وأخت. لن تقبل بي زوجاً حتى لو لم يكن هناك أي رجل آخر في العالم، وسيتطلب الأمر كثيراً جداً لجعلي أُفكر فيها.. كما يتمنى والدي». (بطريقة ما لم أرغب في قول 'زوجةً')، لكن يُحب أحدنا الآخر كثيراً».

قال، «حسناً، إنني مندهش من ذلك الأمر -ليس لأنكما متحابّان بطريقة أخ وأخت- لكن لأنك تجد أن الوقوع في حب امرأة جميلة جداً كهذه هو أمر مستحيل». امرأة! امرأة جميلة! لقد فكرت في فيليس بوصفها فتاة جميلة لكن خرقاء. ولا يمكنني إبعاد المريلة عن مُخيلتي عندما حاولت تكوين صورة لها في مخيلتي. واستدرتُ الآن، كما فعل السيد هولدزورث، لكي أنظر إليها مرة أخرى من النافذة: كانت قد أنهت مهمتها توّاً، وكانت تقف وظهرها إلينا وترفع السلة، والوعاء في داخلها، عالياً في الهواء بعيداً عن متناول الكلب روفر الذي كان يمنح متنفساً لسروره لإمكانية تغيير المكان من خلال الوثب والنباح، ويحاول فجأة الإمساك بما تخيل أنه جائزة مخفية. بعد فترة طويلة، سئمتْ فيليس من لعبهما المتبادل وقامت، مع تظاهر بضربه وقالت، «اجلس يا روفر! واصمت!»، بالنظر إلى النافذة، حيث كنا واقفين، كما لو أنها تُطمئن نفسها بأن الضجة لم تُزعج أحداً، وعندما رأتنا تورد وجهها كله من الخجل، وابتعدت مسرعة، وروفر يجري حولها في خطوط متعرجة في أثناء سيرها.

قال هولدزورث في أثناء استدارته مبتعداً، «أود أن أرسمها». ثمّ عاد إلى كرسيه، واستراح في صمت بضع دقائق. ثم نهض مرة أخرى.

قال، «أرغب كثيراً في كتاب، فسوف يُبقيني هادئاً». بدأ بالنظر هنا وهناك، وكان هناك بضعة مجلدات على طرف طاولة الشوفيلبورد، ثم قال وهو يقرأ عناوينها بصوت مرتفع وباستغراب شديد، «المجلد الخامس من تعليق ماثيو هنري... دليل ربة المنزل الكامل... بيرّيدج يتحدث عن الصلاة... الجحيم... دانتي! ياه، من يقرأ هذه الكتب؟»

قلتُ، «أخبرتُك بأن فيليس تقرؤها. ألا تتذكر؟ إنها تعرف اللاتينية واليونانية، أيضاً».

«من غير شك! أتذكر! إلا أنني بطريقة ما لم أتوصل إلى نتيجة بديهية قَطُّ. إذن فتلك الفتاة الهادئة، بكل ما لديها من الأعمال المنزلية، هي المثقفة الرائعة التي حيرتك بأسئلتها عندما بدأتَ بالمجيء إلى هنا أول مرة. بالتأكيد، 'ابنة الخال فيليس!' ماذا هنا: ورقة مكتوب عليها كلمات صعبة عفا عليها الزمن. أتساءل أي نوع من القواميس لديها. قاموس باريتّي لن يُعرِّفها بكل هذه الكلمات. انتظر! لديّ قلم رصاص هنا. سوف أدوِّن المعاني المُتعارَف عليها أكثر وأجنبها بعض المشقة».

وهكذا، أخذ كتابها والورقة وعاد إلى الطاولة المستديرة الصغيرة، وشغل نفسه بكتابة شروحات الكلمات التي كانت تستصعبها وتعريفاتها. لم أكن متأكداً مما إذا كان يتجاوز التصرف

بحرية: لم يسرّني ذلك، لكنني لم أعرف لماذا. كان قد فرغ من الكتابة توّاً، وأعاد الأوراق إلى مكانها في الكتاب ووضع الكتاب في مكانه، عندما سمعتُ صوت دواليب تتوقف في الممر، وبإلقاء نظرة إلى الخارج رأيتُ ابنة الخال هولمان تخرج من عربة أحد الجيران، وتنحني انحناءة شكر، ثمّ تتجه نحو المنزل حيث ذهبتُ لأستقبلها.

قالت، «أوه، بول! أنا آسفة جداً فقد استُبقيت. ثمّ قال توماس دوبسون لو مكثتُ ربع ساعة فكان سوف... ولكن أين صديقك السيد هولدزورث؟ أرجو أن يكون قد حضر؟»

في تلك اللحظة بالضبط خرج هولدزورث وأمسك بيدها بأسلوبه الودي اللطيف، وشكرها لطلبها أن يحضر إلى هنا لكي يسترد عافيته.

«بكل تأكيد أنا مسرورة جداً لرؤيتك يا سيدي. لقد كانت فكرة القسيس. اعتقدت أنك ستقضي وقتاً رتيباً في منزلنا الهادئ، إذْ إن بول يقول إنك تسافر كثيراً. ولكن القسيس يقول إن الرتابة ربما تلائمك في أثناء مرضك، وأنَّ عليَّ أن أطلب من بول أن يمكث هنا قدر استطاعته. آمل أن تكون سعيداً معنا، أنا متأكدة من ذلك يا سيدي. أتساءل ما إذا قدمت إليك فيليس شيئاً من الطعام والشراب؟ هناك علاج في الأكل بكميات قليلة في وجبات متعددة إلى حد ما، إذا كان المرء يرغب في استرداد عافيته بعد المرض». ثمّ بدأت تستجوبه بشأن تفاصيل توعكه بطريقتها البسيطة الأمومية. بدا أنه استوعبها ودخل في علاقة ودية معها فوراً. ولم يكن الحال ذاته تماماً في المساء عندما وصل القسيس إلى المنزل، فلدى الرجال

دائماً قليل من النفور الطبيعي ينبغي لهم التغلب عليه عندما يلتقون مع غرباء أول مرة. ولكن في هذه الحالة كان كل منهما مستعداً لبذل مجهود لكي يُحب الآخر. غير أن كل واحد منهما كان بالنسبة إلى الآخر عيّنة من طبقةٍ غير معروفة. وكان عليَّ مغادرة مزرعة الأمل بعد ظهر يوم الأحد، حيث كان عليَّ الاضطلاع بعمل السيد هولدزورث إضافة إلى عملي في إلثام. ولم أكن متيقناً كيف ستسير الأمور خلال الأسبوع الذي كان سيبقى فيه هولدزورث في زيارته. لقد سبق أن مررت في ظروف صعبة عدة مرات عندما كان الصدام في الآراء بين القسيس وبين صديقي المتبجح كثيراً يوشك أن يقع. وفي يوم الأربعاء استلمت مذكرة قصيرة من هولدزورث. كان سيبقى في المزرعة ويعود معي يوم الأحد التالي، وكان يريد مني أن أرسل إليه قائمة معينة من الكتب، ومزواته، وأدوات مساحة أخرى، كان من الممكن نقلها جميعها بسهولة على الخط إلى هيثبريدج. ذهبتُ إلى مسكنه وأخذتُ الكتب، إيطالية، ولاتينية، ومثلثات، شكّلت طرداً كبيراً جداً، إضافة إلى الأجهزة. بدأت أشعر بالفضول بشأن التقدم في الشؤون العامة في مزرعة الأمل، لكنني لم أستطع الذهاب للزيارة قبل يوم السبت. في هيثبريدج، وجدت هولدزورث قد جاء لاستقبالي. كان يبدو رجلاً مختلفاً تماماً عما تركته عليه. كانت بشرته قد اسمرّت، وكان هناك بريق في عينيه اللتين كانتا منهكتين جداً من قبل. وأخبرته كم كان يبدو أقوى بكثير.

قال، «نعم! إنني أتململ بسرور لكي أكون في العمل مرة أخرى. في الأسبوع الماضي، روعتني الأفكار بشأن وظيفتي: أنا الآن مفعم بالرغبة في البدء. لقد فعل هذا الأسبوع في الريف العجائب معي».

«لقد أمضيت وقتاً ممتعاً إذن؟»

«أوه! لقد كان مثالياً في أسلوب قضائه. إنها حياة ريفية شاملة! ومع ذلك فهي بعيدة عن الرتابة التي كنت أتخيل أنها مُلازمة لحياة الريف، بسبب ذكاء القسيس الاستثنائي. وأصبحت أناديه «القسيس»، كما يناديه الجميع».

قلتُ، «أنت منسجم معه إذن؟ لقد كنت خائفاً قليلاً».

قال، «أخشى أنني كنت أوشك أن أثير غضبه عدة مرات من خلال تأكيدات عشوائية وتعابير مبالغ فيها، مثل تلك التي يستخدمها المرء مع الأشخاص الآخرين دون التفكير فيها. ولكنني حاولت ضبط نفسي عندما رأيت كم صدَمَت الرجل الصالح. وفي الواقع، يعدّ ذلك تدريباً مفيداً جداً ينطوي على محاولة المرء جعل كلماته تُمثِّل أفكاره، بدلاً من مجرد النظر إلى أثرها على الآخرين».

سألتُ، «إذن أنتما الآن صديقان حميمان؟»

«نعم، كليّاً. بقدر ما يمكنني الوصول إليه، على أي حال. لم يسبق لي أن قابلت رجلاً يمتلك مثل هذه الرغبة في المعرفة. إنه يتفوق عليَّ كثيراً فيما يتعلق بالمعلومات التي يمكن الحصول عليها من الكتب، وذلك في معظم المواضيع. من ناحية أخرى، أنا سافرت وشاهدت... ألم تستغرب من قائمة الأشياء التي أرسلت في طلبها؟»

قلتُ، «بلى. وفي رأيي أنها لا تبشر بكثير من الارتياح».

قال، «أوه، بعض الكتب من أجل القسيس، وبعضها من أجل ابنته. (أنا أدعوها فيليس مع نفسي، لكنني أكون رسمياً عند

التحدث بشأنها مع آخرين. لا أُحب أن أبدو رافعاً الكلفة، ومع ذلك فلم أسمع تعبير الآنسة هولمان يُستخدَم أبداً)».

قلتُ، «اعتقدت أن الكتب الإيطالية كانت من أجلها».

قال، «نعم! تخيل أنها تحاول قراءة دانتي بوصفه أولَ كتاب لها في اللغة الإيطالية! لديَّ رواية أساسية من تأليف مانزوني «المخطوبون» إنها الشيء المناسب تماماً للمبتدئ. وإذا كانت مصممة على استكشاف دانتي، فإن قاموسي أفضل من قاموسها بكثير».

قلتُ، «إذن فقد اكتشفَتْ أنك كتبتَ تلك التعريفات على قائمة الكلمات الخاصة بها؟»

قال مع ابتسامة بهجة وسرور، «أوه! نعم». وكان يوشك أن يُخبرني بالذي حدث، إلا أنه كبح نفسه.

قلتُ، «ولكن هل تعتقد أن القسيس سوف يعجبه أن تُعطيها رواية لتقرأها؟»

قال، «بووه! ما هو الشيء الذي يمكن أن يكون غير مؤذٍ أكثر؟ لماذا تُحوَّل الكلمات إلى مصدر خوف؟ إنها مجرد حكاية جميلة وبريئة بقدر ما يمكن أن تكون. أنت لا تفترض أنهم يحسبون فيرجيل إنجيلاً؟»

بحلول هذا الوقت كنا قد وصلنا إلى المزرعة. أعتقد أن فيليس قد رحبت بي بحرارة أكثر من المعتاد، وكانت ابنة الخال هولمان لطيفة إلى أقصى درجة. ومع ذلك، بطريقة ما، شعرت كما لو أنني فقدت مكانتي، وأن هولدزورث قد استحوذ عليها. لقد عرف

جميع عادات المنزل، وكان يتعامل مع ابنة الخال هولمان بكثير من تلطف الابن، وكان يعامل فيليس بتودد أخ أكبر حنون، وليس أكثر من ذلك، ولا يختلف عن ذلك بأي طريقة. وقد استفسر مني، باهتمام حماسيّ، عن تقدم العمل في إلثام.

قالت ابنة الخال هولمان، «آه! في الأسبوع القادم سوف تقضي الوقت بشكل مختلف عمّا قضيته في هذا الأسبوع! أستطيع معرفة كم ستكون مشغولاً! لكن إذا لم تكن حريصاً فسوف تمرض مرة أخرى، وستضطر إلى العودة إلى أساليبنا الهادئة في العيش هنا».

ردَّ بمودة، «هل تعتقدين أنّ عليَّ أن أكون مريضاً لكي أرغب في العودة إلى هنا؟ إن ما أخشاه هو أن تكوني قد عاملتني بلطف شديد، فأستمر بالمجيء إلى هنا وأبقى تحت رعايتك».

ردَّت، «ذلك صحيح. ولكن لا تعرض نفسك للمرض بالإفراط في العمل. آمل أن تستمر بشرب كوب من الحليب الطازج كل صباح، فأنا متأكدة من أن ذلك هو أفضل دواء، مع وضع ملعقة صغيرة من «الرم» فيه، إن شئت. الكثيرون يمدحون ذلك الشراب، إلا أنه ليس لدينا رم في المنزل». لقد جلبتُ معي جوّاً من الحياة النشطة التي أعتقد أنه قد بدأ يفتقدها، وكان من الطبيعي أن يسعى إلى مرافقتي، بعد الأسبوع الذي قضاه في اعتزال. وفجأة رأيت فيليس تنظر إلينا ونحن نتحدث معاً بنوع من الفضول التأمّلي، ولكن بمجرد أن التفتّ إليها أدارت وجهها بعيداً عني وقد تورّد وجهها بشدة من الخجل.

في ذلك المساء، دار حديث قصير بيني وبين القسيس. لقد مشيت على طول طريق هورنباي لكي أقابله، إذْ إن هولدزورث كان يشرح لفيليس درساً في اللغة الإيطالية، وكانت ابنة الخال هولمان قد غفَت فوق القطعة التي تشتغل بها. بطريقة ما، على مضض مني، تطرقنا إلى الحديث بشأن الصديق الذي عرَّفته إلى أسرة مزرعة الأمل.

قال القسيس وهو يزن كلامه قليلاً في أثناء حديثه، «نعم! إنني أحبه! أنا أحبه! آمل أن يكون هناك ما يُبرر ذلك، لكنه يستحوذ عليّ، إن جاز التعبير. وأكادُ أكون خائفاً أن يجعلني مستغرقاً في حماسي بشكل مفرط، على الرغم مما أتمتع به من حسن تقدير».

قلتُ، «إنه شخص جيد. إنه كذلك في الواقع، والدي يكنّ له الاحترام. وأنا رأيت تعاملاً طيباً منه. ما كُنتُ لأحضره هنا لو لم أكن أعرف أنك سوف تكون راضياً عنه».

قال (متردداً من جديد)، «نعم، أنا أحبه، وأعتقد أنه رجل مستقيم. هناك افتقار إلى الجدية في كلامه أحياناً، والاستماع إليه هو أمر رائع في الوقت ذاته! إنه يجعل هوراس وفيرجيل من الأحياء، وليسا في عداد الموتى، من خلال القصص التي يرويها لي عن إقامته في البلاد ذاتها التي كانا يعيشان فيها، والتي ما زالا فيها حتى هذه الأيام، على حد قوله - لكن هذا شيء مثل شرب الكحول في الحانات. إنني أصغي إليه إلى أن أنسى واجباتي، ويغمرني الحماس. لقد قادنا في مساء يوم السبت الماضي إلى الحديث في مواضيع دنيوية غير ملائمة لذلك اليوم». وبحلول هذا الوقت كنا قد وصلنا إلى

المنزل، وكانت محادثتنا قد توقفت. ولكن قبل أن يكون اليوم قد انتهى، شاهدت الاستحواذ اللاواعي الذي حظي به صديقي على العائلة كلها. ولا عجب: فقد شاهد الكثير جداً وفعل الكثير جداً مقارنة بهم، وتحدث بكلّ ذلك بطريقة سلسة وطبيعية جداً، مع ذلك، كما لم أسمع أي شخص آخر يتحدث بتلك الطريقة من قبل. وكان قلمه الرصاص جاهزاً في أيّ لحظة بيده لكي يرسم على قُصاصات من الورق رسومات إيضاحية لأمور متنوعة جداً - أساليب سحب المياه في شمال إيطاليا، وعربات النبيذ، والجواميس، وأشجار الصنوبر المثمر، وأشياء كثيرة أخرى لا أعرف ما هي. وبعد أن نظرنا جميعنا إلى هذه الرسومات، جمعتْها فيليس معاً، وأخذتها. لقد مرَّت سنوات كثيرة منذ أن رأيتك يا إدوارد هولدزورث، لكنك كنتَ صديقاً مُبهجاً! نعم، وصديقاً صالحاً أيضاً، على الرغم من أنك تسببت إلى الكثير من الحزن!

الجُزءُ الثّالِث



ذهبتُ بعد هذا مباشرة إلى الأهل لقضاء عطلة مدتها أسبوع. لقد كان كل شيء يزدهر هناك. وقدمتْ شراكة والدي نتائج مُرضية بشكل واضح لكِلا الطرفين. لم تكن هناك مظاهر لزيادة الثروة في منزلنا المتواضع. ولكن تمتعتْ أمي بمزيد من الراحة التي وفرها لها زوجها. وتعرفتُ إلى السيد والسيدة إليسون، ورأيت أول مرة مارغريت إليسون الجميلة، التي هي زوجتي الآن. وعندما عُدتُ إلى إلثام، اكتشفت أن هناك خطوة تم اتخاذ قرار بشأنها، وكان هناك تفكير لبعض الوقت بخصوصها. وهي أنّ علينا أن نقوم، أنا وهولدزورث، بنقل مقر عملنا إلى هورنباي. فقد كانت هناك ضرورة إلى تواجدنا بشكل يومي من أجل استكمال خط سكة الحديد عند نهايته.

وقد أدى ذلك، بلا ريب، إلى سهولة أكبر في التواصل مع أسرة مزرعة الأمل. فكان بوسعنا المشي بسهولة إلى هناك بعد انتهاء عملنا اليومي، وقضاء بضع ساعات في أمسية منعشة، ومع ذلك كان بإمكاننا العودة قبل أن يكون شفق الصيف قد تلاشى تماماً.

وفي الواقع، تمنينا في أحيان كثيرة لو مكثنا فترة أطول، فقد كان الهواء الطلق والريف الجميل المنعش يشكلان نقيضاً بهياً جداً لمسكن البلدة الحارّ الضيق الذي تشاركنا به أنا وهولدزورث. ولكن الساعات الباكرة من الصباح والمساء، على حد سواء، كانت ضرورة حتمية مع القسيس، ولم يتردد في جعلنا نخرج من المنزل، أحدنا أو كلانا، مباشرة بعد صلاة المساء، أو 'تمرين المساء' كما كان يسميه هو. عندما أفكر بذلك الصيف، يراودني الكثير من ذكريات أيام سعيدة، والعديد من مشاهد الأحداث الصغيرة. إنها تظهر مثل صور في ذاكرتي، وأستطيع بتلك الطريقة تحديد تأريخ تعاقبها، فأنا أعرف أن حصاد الذرة ينبغي أن يأتي بعد جمع القش وتكديسه، وأن جمع التفاح يتم بعد حصاد الذرة.

استغرق الانتقال إلى هورنباي بعض الوقت، ولم يكن لدى أي منا، نحن الاثنين، أي متسع من الوقت للذهاب إلى مزرعة الأمل. وقد ذهب السيد هولدزورث تارة إلى هناك في أثناء بقائي في مسكننا في البلدة. حيث اقترح ذات ليلة شديدة الحرارة والرطوبة، أن نذهب مشياً لزيارة أسرة هولمان. وحدث أنني كنت قد فوَّتّ كتابة رسالتي الأسبوعية المعتادة إلى الأهل بسبب ضغط العمل، ورغبت في إنهاء كتابتها قبل الخروج، عندئذ قال إنه كان سيذهب، وإنني أستطيع اللحاق به إن شِئت. وقد خرجت في إثره بعد حوالى ساعة. وأذكر أن الطقس كان خانقاً إلى درجة أنني خلعت معطفي وأنا أسير ووضعته فوق ذراعي. كانت جميع أبواب المزرعة ونوافذها مفتوحة عندما وصلتُ إلى هناك، وكانت كل ورقة صغيرة على الأشجار ساكنة. لقد كان صمت المكان مُطبقاً. في البداية،

اعتقدت أن المكان كان مهجوراً تماماً. ولكن ما إن اقتربت من الباب حتى سمعت صوتاً عذباً ضعيفاً يبدأ بالغناء. لقد كانت ابنة الخال هولمان بمفردها في غرفة الأسرة، تُنشِد بصوت مرتفع ترنيمة في أثناء قيامها بالحياكة في الضوء المغطى بالغيوم. رحبت بي ترحيباً لطيفاً، وانهالت عليَّ بجميع الأخبار المنزلية للأسبوعين الماضيين. وأخبرتها أنا أيضاً بأحوال أسرتي، وحدثتها بزيارتي إلى الأهل.

سألتُ بعد مرور وقت طويل، «أين الآخرون؟»

كانت بيتّي والرجال في الحقل يُساعدون في آخر حمولة من القش، فقد قال القسيس إنه سيكون هناك مطر قبل الصباح. نعم، وكان القسيس نفسه وفيليس والسيد هولدزورث جميعهم هناك يُساعدون. وقد ظنت أنها تستطيع هي نفسها عمل شيء ما، لكن ربما كانت هي الأقل ملاءمة من أي شخص آخر للقيام بتحميل القش، ولا بد أن يبقى شخص ما في المنزل للاعتناء به، فهناك الكثير من الذين يطوفون من أجل السرقة. وكان من الممكن أن تدعوهم عمال بناء سكة الحديد لو لم تكن لي علاقة بسكة الحديد. سألتها إن كان لا يُهمها أن تبقى وحيدة، حيث كنت أرغب في الذهاب وتقديم المساعدة. وبعد الحصول على إذنها الكامل بسرور، لكي أتركها وحدها، غادرت مُتبعاً إرشاداتها: خلال فناء المزرعة، بعد بركة الماشية، داخل حقل أشجار الدردار، وأبعد إلى داخل الحقل الأعلى الذي تتوسطه شجيرتا بَهْشِيَّة. وصلت إلى هناك: كان هناك بيتّي مع جميع المزارعين، وحقلٌ خالٍ من الأعشاب، وعربة عليها حِمل ثقيل. وكان هناك أيضاً رجلٌ فوق قمة الكومة الهائلة مُستعداً للإمساك بالقش الفوَّاح الذي كان يُلقيه الآخرون إليه بمذاريهم. وكانت

هناك كومة صغيرة من ملابس مطروحة في إحدى زاويا الحقل (ذلك أن الحرَّ، حتى في الساعة السابعة، كان غير محتمل)، وبضع علب وسلال، وكان الكلب روفر راقداً يلهث بقربهم، ويراقبهم باستمرار. وكان هناك الكثير من الأحاديث الجذلة الودية الصاخبة، لكن لم يكن القسيس أو فيليس أو السيد هولدزورث هناك. وكانت بيتّي هي التي رأتني أولاً، فأتت نحوي مُدركة عمَّن كنت أبحث.

قالت، «إنهم هناك... يمشون مسرعين ومعهم أشياء السيد هولدزورث». لذا ذهبت إلى «هناك»، إلى أرض مرتفعة فسيحة مشاع تكثر فيها الضفاف الرملية الحمراء والمساحات الممتدة والتجاويف، وتحدّها أشجار «تنّوب» داكنة ذات لون أرجواني في الظلال المخيّمة، لكنها متوهجة في كل الأماكن القريبة من نبات القنديل المُزهر، أو شجيرات «الجولق»، كما نسميها نحن أهل الجنوب، تلك التي بدت ذهبية بتألق مقابل طوق الأشجار البعيدة. في هذا المرج كثير الخُضرة، على بُعد مسافة قصيرة من بوابة الحقل، رأيتُ الثلاثة، فقد عددتُ رؤوسهم المنضمة معاً في مجموعة متحمسة فوق مِزواة هولدزورث الذي كان يُعلِّمُ القسيس الفن العملي للمساحة وقياس المستويات. كنتُ مطلوباً لتقديم المساعدة، وجعلتُ أشرع بالعمل بسرعة للإمساك بالسلسلة. كانت فيليس منهمكة في العمل مثل والدها ولم يكن لديها وقت لتحيتي، إذ إنها كانت حريصة جداً على سماع إجابةٍ ما عن سؤال والدها. وهكذا واصلنا العمل خمسَ دقائق تقريباً بعد وصولي، وكانت الغيوم الداكنة ما تزال تتجمع. ثمّ أتى البرق المُبهر، وتلته بسرعة القعقعة والهدير المجلجل للرعد فوق رؤوسنا تماماً. لقد أتت أبكر مما

توقعتُ، وقبل ما كانوا يأملون: فلم يتأخر المطر، بل انهمر بغزارة. وبماذا كنا سنحتمي؟ لم تكن فيليس ترتدي سوى ملابسها التي ترتديها داخل المنزل، بدون قبعة ولا شال. وقام هولدزورث في سرعة البرق بخلع معطفه ولفه حول عنقها وأكتافها، وقام أيضاً، دون أن ينبس ببنت شفة، بجعلنا نهرع إلى مخبأ سيّئ بقدر ما توفره كومة رمل بارزة. كنا هناك جاثمين، بعضنا قريب من بعض، وكانت فيليس في أعمق مكان، محشورة جداً إلى درجة تكاد لا تجعلها قادرة على تحرير يديها بما يكفي لتخلع المعطف، الذي حاولتْ من ثَمَّ وضعَه برفق على كتفي هولدزورث، فلمَست قميصه في أثناء عمل ذلك.

صاحت بهلع فيه شفقة، «أوه، إنك مُبلل جداً! ولم تتعافَ من الحمى إلا قبل وقت قصير جداً! أوه أنا آسفة يا سيد هولدزورث!» فأدار رأسه قليلاً مبتسماً لها وقال،

«إذا أُصِبتُ بالبرد، فسيكون ذلك خطئي لأنني أغريتكم بالبقاء هنا في الخارج!» إلا أنها همست مرة أخرى، «أنا آسفة جداً». وتكلم القسيس الآن، «إنه هطول مطر عادي. نشكر الرب أننا حافظنا على القش! ولكن من غير المحتمل أن يتوقف. ومن الأفضل أن أذهب إلى المنزل فوراً وأرسل إليكم جميعاً بعض الأغطية، أما المظلات فلن تكون آمنة مع الرعد والبرق».

عرضنا كلانا، أنا وهولدزورث، أن نذهب بدلاً منه، إلا أنه كان مُصمماً، على الرغم من أنه كان من الحكمة أكثر لو أن هولدزورث استمر بالركض، نظراً إلى أنه كان مُبتّلاً أصلاً. وعندما

غادر، تسللت فيليس نحو الخارج، فكانت قادرة على رؤية المرج الأخضر الذي اجتاحته العاصفةُ. بقي قسم من معدات هولدزورث مُعرضاً للمطر. وقبل أن نحصل على أي إخطار، خرجتْ مسرعة من المكان المُغطى وجمعت الأشياء المتنوعة، وعادت وهي تحملها معها في بهجة المنتصر إلى حيث كنا نحتمي. كان هولدزورث قد وقف، وكان متردداً بشأن الذهاب لمساعدتها أم لا. عادت راكضة وشعرها الجميل الطويل يتطاير ويقطر، وعيناها مبتهجتان وبراقتان، ولون وجهها قد تجدد في توهج صحي من الركض والمطر.

قال هولدزورث عندما قدمتْها إليه، «ذلك ما أسميه عِناداً، يا آنسة هولمان. لا، لن أشكرك» (كانت نظراته تشكرها طوال الوقت). «لقد أزعجك قليل من البلل، لأنك اعتقدت أنني تبللت لكي أساعدك. لذا فقد كنتِ مصممة على جعلي أشعر بإحراج كما كنتِ تشعرين أنت. لقد كان انتقاماً يتنافى مع الروح المسيحية!»

كان من الممكن لنبرته المُمازِحة (كما يُسميها الفرنسيون) أن تكون واضحة بما فيه الكفاية لأي شخص تمرَّسَ في هذا العالم، لكن فيليس لم تكن كذلك، وقد أحزنها، أو بالأحرى أذهلها، ذلك. فقد كان للتعبير «يتنافى مع الروح المسيحية» معنى خطير جداً بالنسبة إليها، وهي عبارة ينبغي ألّا تُستخدَم باستخفاف. وعلى الرغم من أنها لم تدرِك بالضبط ماذا كانت الإساءة التي اتُّهِمَت بارتكابها، إلا أنها كانت حريصة على نفي التهمة. في البداية، وجد هولدزورث تسلية بجديتها في إنكار وجود دوافع فظة، في حين أن استمراره باستخفاف في المُزاح جعلها محتارة أكثر. ولكنه أخيراً قال شيئاً ما بجدية، وبنبرة أخفض كثيراً من أن أسمعها، ما جعلها تصمت فجأة

ويتورد وجهها خجلاً. عاد القسيس بعد برهة، وكان أشبه بكومة متحركة من الشالات والمعاطف والمظلات. بقيت فيليس قريبة جداً من والدها في أثناء عودتنا إلى المزرعة. وبدا لي أنها كانت تتجنب هولدزورث، في حين لم يكن هناك أدنى تغيير في أسلوبه عمّا يكون عليه عادة في طباعه الأكثر جدية: فهو لطيف، وصائن ومراع للمشاعر تِجاهها. وبلا ريب، كان هناك اضطراب كبير بشأن ملابسنا المبللة، لكنني أذكر الأحداث الصغيرة لذلك المساء الآن، لأنني تساءلت في ذلك الوقت عمّا قاله بذلك الصوت المنخفض فجعل فيليس تسكت تماماً، ولأن لذلك المساء أهمية بارزة، إلى حد ما، عند التفكير في علاقتهما في ضوء الأحداث المستقبلية. لقد قلتُ إنه بعد نقلنا إلى هورنباي أصبحت اتصالاتنا مع المزرعة تحدث بصورة شبه يومية حيث كنتُ وابنة الخال هولمان الشخصين اللذين لم تكن لهما صلة تُذكَر بهذه الألفة. فبعد أن استعاد السيد هولدزورث صحته، كان يتحدث في كثير من الأحيان بأمور فكرية تفوق قدرتها على الاستيعاب، وكان ذلك غالباً بنبرته المازحة لكي تشعر براحة تامة معه. أعتقد حقاً أنه اعتمد هذه النبرة الأخيرة في التحدث معها لأنه لم يكن يعرف بماذا يتحدث مع امرأة أمومية تماماً لم تتم تنمية قدراتها الفكرية مُطلقاً، والتي كان قلبها المُحب مشغولاً بشكل كامل بزوجها وابنتها وشؤونها المنزلية، وربما قليلاً بشؤون رعايا كنيسة زوجها، لأنهم كانوا، بطريقة ما، يخصّون زوجها. ذكرتُ سابقاً أنه كانت لديها سُحب عابرة من الغيرة، حتى من فيليس عندما بدا أنه كانت هناك اهتمامات قوية وتفاهم بين ابنتها وزوجها في أمور بعيدة تماماً عن قدرتها على الاستيعاب. وقد لاحظتُ ذلك عندما تعرفتُ إليهم أول مرة، وأُعجِبتُ بمدى

حساسية اللباقة التي جعلت القسيس، في مثل هذه المناسبات، يعود بالمحادثة إلى تلك المواضيع التي كانت زوجته مختصة بها بحكم خبرتها العملية بالحياة اليومية، في حين كانت فيليس، البارّة بوالدها، تحذو حذوه لاشعورياً غير مُدركة نهائياً لدوافعه في عمل ذلك نظراً إلى ما تُكنّه من احترام بوصفها ابنة.

وبالعودة إلى هولدزورث فقد كان القسيس قد حدثني بشأنه أكثر من مرة بقليل من الارتياب الناجم بشكل أساسي عن الشك في أن كلماته المستهترة لم تكن دائماً تلك الكلمات التي تتسم بالجدية والصدق. ولكن ذلك كان احتجاجاً تجاه الفتنة التي كان الرجل الأصغر سناً يمارسها على الرجل الأكبر سناً، بشكل واضح، أكثر مما كان شيئاً لتعزيز قدرته ضد الخضوع إلى فتنته، فقد أفصح لي القسيس بشأن هذا العيب في هولدزورث، كما بدا له. وكان هولدزورث من جهته خاضعاً بسبب استقامة القسيس وطيبته، ومنتشياً بصفاء ذهنه وحرصه الشديد الصحي للحصول على المزيد من المعرفة. لم أرَ قَطُّ رجلين استمتعا ونعِما بتعاشرهما أكثر منهما. أما بالنسبة إلى فيليس، فقد استمرت علاقته بها بوصفها علاقة أخٍ أكبر: وجّه دراساتها نحو مسارات جديدة، واستخرج بصبرٍ تعابير الكثير من أفكارها وممّا يُحيرها ومن نظرياتها غير المُشَكَّلة، وهي الآن نادراً ما تقع في جزء من المُزاح الذي كانت بطيئة جداً في إدراكه.

في أحد أيام وقت الحصاد، كان يرسم على قطعة ورق سائبة أكواز ذرة، وعربات تسحبها ثيران مُحمّلة بالعنب، ويتحدث طوال الوقت مع فيليس ومعي، وكانت ابنة الخال هولمان تُقحم ملاحظاتها غير ذات الصلة، عندما قال فُجأة مُحَدِّثاً فيليس:

«ابقي رأسك ثابتاً، فإنني أرى رسماً! لقد حاولت مرات عديدة رسم رأسك من الذاكرة وفشلت. لكن أعتقد أنني أستطيع فعل ذلك الآن. إذا نجحت فسوف أُعطيه لأمك. أنت ترغبين في الحصول على رسم لابنتك مثل سيريز، أليس كذلك يا سيدتي؟»

«أُحِبُّ الحصول على صورة لها. نعم، أحب ذلك كثيراً جداً، شكراً لك يا سيد هولدزورث. ولكن إن وضعتَ تلك القشة في شعرها، فإنك سوف تنفش شعرها». (كان يحمل بعض سنابل القمح فوق رأسها الساكن وينظر لأثرها بعين فنية). «فيليس، يا عزيزتي، إذا كان لا بُد من رسم صورة لك، فاذهبي إلى الطابق العلوي وسرحي شعرك بالفرشاة حتى يُصبح أملس».

«لا داعي لذلك على الإطلاق. أستميحك عُذراً، لكنني أريد شعرها مُسترسلاً على نحو طليق». بدأ يرسم وهو ينظر بتركيز إلى فيليس. واستطعتُ أن أرى أن تحديقه هذا قد سبب لها اضطراباً، فقد تبدل لونها أكثر من مرة، وتسارع نَفَسُها بسبب وعيها باهتمامه. وأخيراً، عندما قال، «أرجو أن تنظري إليَّ بضع دقائق، أريد أن أرسم عينيك»، رفعت نظرها إليه ثم ارتجفت، وفجأة نهضت وغادرت الغرفة. لم يقل شيئاً، ولكنّه واصل العمل في أجزاء أخرى من الرسم. كان صمته غير طبيعي، وشحبت وجنته الداكنة قليلاً. رفعت ابنة الخال هولمان نظرها عن عملها، ووضعت نظاراتها جانباً.

«ما الأمر؟ إلى أين ذهبت؟»

لم ينبس هولدزورث ببنت شفة، لكنه استمر بالرسم. شعرتُ بأنني مضطر إلى قول شيء ما. لقد كان ما سأقوله سخيفاً، لكن السخافة كانت أفضل من الصمت في ذلك الوقت.

قلتُ، «سوف أذهب وأناديها». وهكذا ذهبتُ إلى داخل الصالة، وإلى أسفل الدرج. ولكن عندما كنتُ بالضبط أوشك أن أنادي فيليس، نزلتْ بسرعة مُرتدية قلنسوتها وهي تقول، «أنا ذاهبة إلى والدي في أرض الخمسة فدادين». وخرجت مارّة من باب «الكاهن» المفتوح، ومن أمام نافذة «غرفة الأسرة» مباشرة، ثم إلى الخارج عند الباب الجانبي الأبيض الصغير. شاهدتْها أمها وشاهدها هولدزورث في أثناء مرورها، فلم تكن هناك حاجة إلى الشرح، إلا أنه كانت هناك مناقشة بيني وبين ابنة الخال هولمان بشأن ما إذا كانت فيليس قد وجدت الغرفة حارة جداً، أم ما الذي أدى إلى مغادرتها المفاجئة. كان هولدزورث هادئاً جداً طوال بقية اليوم. كما أنه لم يستأنف العمل على الرسم بدافع خاص به إلا بناء على طلب ابنة الخال هولمان عندما جاء في المرة التالية، وعندئذ قال إنه لن يحتاج إلى أي جلسات شكلية لمجرد رسم بسيط كهذا حيث شعر أنه قادر على تنفيذه بنفسه. وكانت فيليس هي نفسها تماماً، كما كانت دائماً، في المرة التالية التي رأيتها فيها بعد مرورها الجاف بي في الصالة. ولم تُقدم أي شرح على الإطلاق لخروجها مندفعة من الغرفة.

وهكذا سارت الأمور كلها، على الأقل بقدر ما وصلتْ إليه ملاحظتي في ذلك الوقت، أو ما أستطيع استعادته من ذاكرتي الآن، إلى وقت القطاف الكبير للتفاح في تلك السنة. كانت الليالي باردة جداً، وكانت فترات الصباح والمساء ضبابية، لكن فترات منتصف النهار كانت جميعها مُشمسة وساطعة. وفي إحدى فترات منتصف النهار كان كلانا على خط سكة الحديد قرب هيثبريدج. وحيث إننا

كنا مُدركين أنهم كانوا يقومون بقطف التفاح في المزرعة، فقد قررنا قضاء ساعة غداء الرجال في الذهاب إلى هناك. لقد وجدنا سلال الملابس الكبيرة مملوءة بالتفاح، تُعطِّر المنزل وتُغلق الطريق في جو عام من الرضا البهيج بمحصول السنة النهائي هذا. وكانت الأوراق الصفراء متدلية من الأشجار جاهزة للسقوط في رفرفة مع أقل نفخة هواء. وكانت شجيرات أزهار «الخرام» في حديقة المطبخ تُقدم آخر عرض أزهار لها. كان ينبغي أن نتذوق الثِّمار المقطوفة من أشجار مختلفة، وأن نُبدي رأينا في نكهتها. وهكذا انصرفنا وجيوبنا محشوة بتلك التي أعجبتنا أكثر. وفي أثناء مرورنا بالبستان، أعجِبَ هولدزورث ببعض الأزهار التي رآها وتحدَّث بشأنها، حيث إنه لم يرَ هذا النوع قديمَ الطراز منذ أيام صباه. لا أعرف ما إذا كان قد فكر في أي شيء آخر بشأن حديثه العرَضي هذا، لكنني أعرف أنني أنا لم أفكر في شيء آخر - عندما ظهرت فيليس، التي كانت غائبة في اللحظة الأخيرة من زيارتنا السريعة، مُجدداً مع باقة صغيرة من هذه الزهرة ذاتها التي كانت قد ربطتها بنصل عُشب. قدمتها إلى هولدزورث حيث كان واقفاً مع والدها عند نقطة المغادرة. رأيت وجهيهما. ورأيت أول مرة في عينيه السوداوين نظرة الحب التي لا لُبس فيها، فقد كانت أكثر من امتنان لبادرة الاهتمام البسيطة، كانت شجية ومناشِدة وعاطفية. انكمشتْ منها في حيرة، ووقع نظرها علي، وبدافع لإخفاء عواطفها من جهة، وانطلاقاً من لطف حقيقي تِجاه ما يمكن أن يبدو إهمالاً فظّاً لصديق قديم، فقد ذهبتْ مُسرعة لجمع بضع ورود صينية متأخرة الإزهار. ولكنها كانت المرة الأولى على الإطلاق التي تفعل فيها شيئاً لي من هذا القبيل.

كان علينا العودة مشياً بسرعة على خط سكة الحديد قبل عودة الرجال، لذا فلم يتحدث أحدنا مع الآخر إلا قليلاً، وكانت فترة ما بعد الظهر، بصورة طبيعية، ممتلئة جداً بالأشغال إلى درجة لا تمكننا من تبادل أي حديث.عُدنا في المساء إلى مسكننا المشترك في هورنباي. وكانت هناك على الطاولة رسالة إلى هولدزورث، أُعيد تحويلها إليه من إلثام. ونظراً لأن الشاي كان جاهزاً، ولم أكن قد تناولت شيئاً منذ الصباح، فقد شرعت باحتسائه مباشرة دون أي انتباه لرفيقي الذي فتح رسالته وأخذ يقرؤها. بقي صامتاً بضع دقائق. وبعد فترة طويلة قال،

«يا صديقي العزيز! سوف أتركك!»

قلتُ، «تتركني! كيف؟ متى؟»

قال، «كان ينبغي أن تصلني هذه الرسالة أسرع من ذلك. إنها من المهندس غريثيد (كان غريثيد مشهوراً جداً في تلك الأيام. إنه ميت الآن، وشارف اسمه على أن يكون في طي النسيان)، وهو يريد مقابلتي بشأن عمل مهم. في الواقع، من الأفضل أن أخبرك أيضاً يا بول، فهذه الرسالة تحتوي على عرض ملائم جداً لي يتطلب مني الذهاب إلى كندا والإشراف على إنشاء خط سكة حديد هناك».

أُصِبتُ بحالة من الفزع التام، ثمّ قلتُ، «ولكن ماذا ستقول شركتنا بشأن ذلك؟»

أجاب، «أوه، يقوم غريثيد بالإشراف على هذا الخط، كما تعلم. وسوف يكون هو رئيس المهندسين على خط سكة الحديد الكندي هذا. وسيُساهم العديد من مساهمي هذه الشركة في المشروع

الآخر، لذا فأنا أتصور أنهم لن يشكلوا أي صعوبة أمام السير على خطى غريثيد. وهو يقول إنّ لديه شاباً جاهزاً ليحل محلي».

قلتُ، «إنني أكرهه».

قال هولدزورث ضاحكاً، «شكراً لك».

ثمّ استأنف، «ولكن عليك ألا تكرهه، فهذا أمر جيد جداً بالنسبة إليّ، وكذلك، بطبيعة الحال، إذا لم يتم العثور على شخص يقوم بأعباء عملي الأدنى منزلة، فلا يمكن تجنب تكليفي بتولي المنصب الأعلى. أتمنى فقط لو أنني استلمت هذه الرسالة قبل يوم واحد فحسب، فلكل ساعة أهمية بالغة، نظراً إلى أن غريثيد يقول إنهم يشكلون خطراً على خط سكة حديد مُنافس. أتعلم يا بول، أشعر بأنني أميل تقريباً إلى فكرة أنه ينبغي أن أذهب الليلة؟ أستطيع إعادة قاطرة إلى إلثام واللحاق بالقطار الليلي. لا أُحب أن يعتقد غريثيد أنني فاتر الهمة».

سألتُ، وأنا مستاء من فكرة هذا الرحيل المفاجئ، «لكنك سوف تعود؟»

«أوه، نعم! على الأقل آمل ذلك. ربما يريدون مني الذهاب مع السفينة التالية، وسيكون ذلك في يوم السبت». بدأ يأكل ويشرب وهو واقف، لكنني أعتقد أنه كان غير واعٍ نهائياً لطبيعة طعامه أو شرابه.

قال، «سوف أذهب الليلة، فالنشاط والجاهزية مفيدان جداً في مهنتنا. تذكر ذلك يا بني! آمل أن أعود، لكن إن لم أعد، فكُن واثقاً وتذكّر كل الكلمات الحكيمة التي خرجت من بين شفَتيّ.

والآن أين حقيبة السفر؟ إذا استطعت كسب نصف ساعة في جمع أشيائي في إلثام، فذلك أفضل بكثير. لا ديون عليّ على أي حال، وتستطيع دفع ما ينبغي أن أُسدده مُقابل سكني من راتبي ربع السنوي المُستحق في الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر».

قلتُ في قنوط، «إذن، أنت لا تعتقد أنك سوف تعود؟»

قال بلطف، «سوف أعود في وقت ما، لا تخَف مُطلقاً. ربما أعود في غضون بضعة أيام إذا وجدوا أنني غير مؤهل للعمل الكندي، أو قد لا يريدون مني السفر بالسرعة التي أتوقعها الآن. على أي حال، لا تظن أنني سوف أنساك. وهذا العمل هناك يا بول يُفترَض ألّا يستغرق أكثر من سنتين، وربما يتم توظيفنا معاً مرة أخرى بعد ذلك». ربما! لقد كان لدي القليل جداً من الأمل، فالنوع ذاته من الأيام السعيدة لا يعود أبداً. من ناحية أخرى، عملت كل ما في وسعي لمساعدته: الملابس، والأوراق، والكتب، والأدوات. دفعنا كثيراً وبذلنا مجهوداً كبيراً، وقمتُ برصِّ أشياء كثيرة. وقد تم كل ذلك في وقت أقصر بكثير مما توقعنا. ثمّ ركضت إلى السقائف لطلب القاطرة. كُنتُ سأتولى القيادة لأخذه إلى إلثام، وجلسنا مستعدين للاستدعاء.

رفع هولدزورث باقة الزهور الصغيرة التي أحضرها معه من مزرعة الأمل، وكان قد وضعها على رف الموقد فور دخوله إلى الغرفة، ثم شمّ رائحتها، ومررها على شفتيه.

«ما يُكدرني هو أنني لم أكن أعلم، وأنني لم أُودِّع... لم أودّعهم».

قال ذلك في نبرة حزينة، فقد حل به أخيراً طيف الفِراق القادم.

قُلتُ، «سوف أخبرهم أنا. أنا متأكد أنهم سوف يشعرون بالكثير من الأسى». ثم خيّم علينا الصمت.

قال، «لم أُحب قطّ أي أسرة إلى هذه الدرجة».

قلتُ، «كنت أعرف أنك ستحبهم».

«كم تتغير أفكار المرء. لقد كنتُ مُفعماً بالأمل صباح هذا اليوم يا بول». توقف، ثمّ قال،

«هل وضعت ذلك الرسم بعناية؟»

سألتُ، «ذلك المخطط الأولي لرأس؟» لكنني عرفت أنه كان يعني رسم فيليس الفاشل، والذي لم يكن ناجحاً بما فيه الكفاية بالنسبة إليه لكي يُكمله بالتظليل أو التلوين.

قال، «نعم. يا له من وجه بريء جميل! ومع ذلك جداً... أوه، يا إلهي!» تنهد ونهض، ويداه في جيبيه، ليذرع الغرفة جيئة وذهاباً في اضطراب ذهني واضح. ثمّ توقف فجأة أمامي.

وقال، «سوف تُخبرهم كيف حدث الأمر. تذكر القيام بذلك، وأبلِغ القسيس الطيب أسفي الشديد لأنني لم أودعه وأقدِّم الشكر له ولزوجته بشأن كل لطفهم الذي غمروني به. وبالنسبة لفيليس، فسوف أعود، بمشيئة الرب، في غضون سنتين وأخبرها أنا نفسي بكل ما في قلبي».

قلتُ، «أنت تحب فيليس إذن؟»

قال، «أحبها! نعم، أنا أحبها. من يكون في وسعه ألا يحبها عند رؤيتها كما فعلتُ أنا؟ إن شخصيتها استثنائية ونادرة بقدر جمالها! ليباركها الرب! أسأل الرب أن يديم عليها هدوءها الرائع وبراءتها الطاهرة... سنتان! إنه وقت طويل... لكنها تعيش في عزلة كبيرة، إنها تقريباً مثل الجميلة النائمة يا بول». (كان يبتسم الآن، على الرغم من أنني قبل دقيقة كنتُ أظنه يوشك أن يبكي). «ولكنني سوف أعود مثل أمير من كندا، وأوقظها على حُبي. ليس في وسعي سوى أن آمل ألا يكون ذلك صعباً، أليس كذلك يا بول؟» لقد أزعجتني قليلاً هذه اللمسة من الغرور، ولم أردّ عليه، فتابع بأسلوب شبه اعتذاري:

«كما ترى، إن الراتب الذي يمنحونني إياه كبير، وعلاوة على ذلك، فإن هذه التجربة سوف تمنحني اسماً، ستسمح لي بتوقع راتب أكبر، في أي مشروع مستقبلي».

قلتُ، «لن يؤثر ذلك على فيليس».

قال، «لا، لكنه سوف يجعلني لائقاً أكثر في عيون أبيها وأمها». ولم أقدم أي رَدّ.

قال في شبه توسل، «تمنَّ لي التوفيق يا بول. ألا ترغب في أن أكون زوجاً لابنة خالك؟»

سمعت هدير القاطرة وصافرتها، فقد كانت جاهزة في السقائف.

أجبته، مُلطفاً نبرة صوتي فجأة الآن نحو صديقي، حيث إنه كان سيسافر بعيداً، «بلى، أرغب في ذلك. أتمنى لو أنكما ستتزوجان غداً، وسأكون إشبيناً».

قال، «شكراً لك أيها الفتى. والآن يا لهذه الحقيبة الملعونة (كم سيكون القسيس مصدوماً لو سمع ذلك). ولكنها ثقيلة!» ثمّ انطلقنا بسرعة في الظلام، ولحق بالقطار الليلي في إلثام في الوقت المناسب تماماً، ونمتُ أنا في تلك الليلة، مغموماً جداً، في مسكني القديم عند الآنستين داوسون. وكنتُ في الأيام القليلة التالية، بطبيعة الحال، مشغولاً أكثر من أي وقت مضى بإنجاز عملي وعمله على حد سواء. ثمّ وصلت رسالة منه، قصيرة جداً وودية. كان سُيغادر في سفينة يوم السبت، كما كانت جُلّ توقعاته. وكان الرجل الذي سيخلفه بحلول يوم الاثنين القادم سيصل إلى إلثام. وكانت هناك ملحوظة في الحاشية، بهذه الكلمات فقط: «ستأتي باقة أزهاري معي إلى كندا، لكنني لست في حاجة إليها لكي تُذكرني بمزرعة الأمل».

جاء يوم السبت. ولكن تأخر الوقت قبل استطاعتي الذهاب إلى المزرعة. لقد كانت ليلة باردة جداً، وتلألأت النجوم بوضوح فوقي، وكان الطريق هشّاً تحت قدميّ. ولا بد أنهم سمعوا خطواتي قبل وصولي إلى المنزل. لقد كانوا جالسين في «غرفة الأسرة» يقومون بأعمالهم المعتادة عندما دخلتُ. وذهبت عينا فيليس ورائي في نظرتهما الترحيبية، ثم انكبت على عملها في خيبة أمل هادئة.

سألت ابنة الخال هولمان بعد بضع دقائق، «وأين السيد هولدزورث؟ آمل ألا تكون نزلة البرد التي ألمت به أسوأ، فلم يُعجبني سعاله القصير».

ضحكتُ بشكل أخرق، فقد شعرت أنني أحمل أخباراً غير سارة.

«من الضروري أن تكون نزلة البرد التي ألَّمت به قد تحسنت، ذلك أنه رحل، رحل إلى كندا!»

تعمدت النظر بعيداً عن فيليس، لأنني أبلغت خبري بتلك الطريقة المفاجئة.

قال القسيس، «إلى كندا!»

قالت زوجته، «سافر!» لكن فيليس لم تنبس ببنت شفة.

قلتُ، «نعم! وجد رسالة في هورنباي عندما وصلنا إلى المنزل في الليلة الماضية. وكان يُفترض أن يستلمها في وقت أبكر. لقد أُمِرَ بالذهاب مباشرة إلى لندن ومقابلة بعض الأشخاص بشأن خط سكة حديد جديد في كندا، وذهب لكي يقوم بمدِّه. لقد سافر بحراً اليوم. كان مُكتئباً على نحو مُحزن لعدم توفر وقت يسمح له بالحضور وتوديعكم جميعكم. ولكنه انطلق نحو لندن بعد ساعتين من استلامه تلك الرسالة. وطلب مني أن أشكركم جزيل الشكر على لطفكم. إنه آسف جداً لعدم قدومه إلى هنا مرة أخرى». نهضت فيليس وغادرت الغرفة بخطوات صامتة.

قال القسيس، «يؤسفني ذلك كثيراً».

وقالت ابنة الخال هولمان، «وأنا كذلك بكل تأكيد! كنت متعلقة جداً بهذا الفتى منذ رعايتي له في حزيران/ يونيو الماضي، بعد تلك الحمّى الشديدة».

واصل القسيس طرح أسئلة عليّ تتعلق بخطط هولدزورث المستقبلية. وجلب أطلساً كبيراً، قديم الطراز، لعله يكتشف بالتحديد الأماكن التي سوف يمر بها خط سكة الحديد الجديد. ثم كان العشاء جاهزاً. لقد كان دائماً على المائدة بمجرد أن تدق الساعة التي على الدرج الثامنة، ونزلت فيليس ووجهها شاحب وعيناها الجافتان تنظران إليّ نظرة تحدٍّ، فأخشى أن أكون قد آذيت كبرياءها العذري بنظرتي السريعة التي نمَّت عن اهتمام متعاطف عندما دخلت الغرفة. لم تقل كلمة واحدة على الإطلاق، ولم تطرح أي سؤال عن الصديق الغائب، ومع ذلك فقد أجبرت نفسها على الكلام.

وكان الأمر كذلك طوال اليوم التالي. فقد كانت شاحبة إلى أقصى درجة، مثل فتاة تلقت صدمة قوية. ولكنها لم تكن لتسمح لي بالتحدث معها، وحاولتْ جاهدة التصرف كالمعتاد. كررتُ عدة مرات، بشكل علني، مختلف الرسائل الودية التي أوكلني هولدزورث بنقلها، إلا أنها لم تنتبه لها أكثر مما كانت ستنتبه لو كانت كلماتي مجرد هواء لا يحمل أي معنى. وتركتُها في هذا المزاج مساء يوم الأحد.

كان رئيسي الجديد أقل تساهلاً بكثير من رئيسي السابق، فقد كان يحافظ على الانضباط الصارم فيما يتعلق بساعات العمل، لذا فقد مرّ بعض الوقت قبل أن أستطيع الخروج مرة أخرى، حتى من أجل زيارة إلى مزرعة الأمل.

كان مساء ضبابياً في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر. وكان الهواء في الداخل، يبدو مُفعماً بالضباب، لكن كانت هناك قطعة حطب كبيرة على الموقد ما جعل الغرفة مُبهجة أكثر. كانت ابنتا الخال

هولمان وفيليس جالستين على الطاولة المستديرة الصغيرة قبالة النار، ومواظبتين على العمل في صمت. وكان القسيس قد أخرج كتبه ووضعها على المنضدة، وكان مُستغرقاً في الدراسة، على ما يبدو، قرب ضوء الشمعة الوحيدة. وقد يكون الخوف من إزعاجه هو ما تسبب إلى سكون الغرفة غير العادي. ولكن كان هناك ترحيب معدٌّ لي من الجميع. ليس ترحيباً صاخباً ولا عاطفياً، فهو لم يكن كذلك قطّ. خُلعت دثائري الرطبة. وتم استعجال الوجبة التالية، وكان قد وُضِع كرسيٌّ من أجلي عند أحد جانبي النار بحيث كنتُ مُطلّاً على الغرفة بأكملها، تقريباً. وقعت عيناي على فيليس التي بدت شاحبة ومنهكة جداً، ومع نبرة أليمة (إن جاز التعبير) في صوتها. كانت تقوم بعمل الأشياء المعتادة، تُنجز الواجبات المنزلية البسيطة، لكن بطريقة مختلفة نوعاً ما. لا أستطيع أن أخبرك كيف، فقد كانت بارعة وسريعة في حركاتها تماماً كما كانت من قبل، إلا أن الانطلاقة الخفيفة قد اختفت من تلك الحركات. بدأت ابنة الخال هولمان تسألني، وحتى القسيس وضع كُتُبَهُ جانباً، وأتى ووقف في الجانب المقابل للمدفأة، لكي يسمع ما أتيت به من معلومات خفيفة. كان عليَّ أن أخبرهم أولاً لماذا لم أحضر لزيارتهم منذ مدة طويلة وصلت إلى أكثر من خمسة أسابيع. وكان الجواب بسيطاً جداً: العمل وضرورة الامتثال لأوامر المدير الجديد الصارمة، فهو لم يتعلم بعد الثقة، ناهيك عن التساهل. أومأ القسيس مُعرباً عن تأييده لتصرفي، وقال، «صحيح يا بول! 'أيها العبيد، أطيعوا في كل شيء سادتكم حسب الجسد'. كانت عندي مخاوف من أنه كانت لديك حرية في العمل أكثر من اللازم تحت إشراف إدوارد هولدزورث».

قالت ابنة الخال هولمان، «آه، السيد هولدزورث المسكين، لا بد أنه في البحار المالحة الآن في هذا الوقت!»

قلتُ، «في الواقع لا. لقد وصل إلى البر، واستلمت رسالة منه أرسلها من مدينة هاليفاكس». فوراً، انهمر عليَّ وابل كثيف من الأسئلة. متى؟ وكيف؟ وماذا كان يفعل؟ وما مدى إعجابه بها؟ وكيف كانت الرحلة؟ وهلم جراً.

«لقد فكرنا فيه مرات كثيرة عندما كانت الرياح تهب بقوة. لقد انهارت شجرة السفرجل الكبيرة يا بول، تلك التي على يمين شجرة الكمثرى الضخمة، لقد انهارت قبل أسبوع من يوم الاثنين الماضي، وقد طلبتُ من القسيس في تلك الليلة أن يُصلي بطريقة استثنائية من أجل جميع أولئك المسافرين في سُفن في البحر العميق العظيم، وقال حينئذ إنه من المحتمل أن يكون السيد هولدزورث قد وصل إلى البر. ولكنني قلتُ، حتى إذا كانت الصلاة لا تنطبق عليه، فلا بد أن تنطبق على شخص ما مسافر في البحر هو بحاجة إلى رعاية الرب. اعتقدنا كلانا، أنا وفيليس، أنه سيمكث شهراً في البحر». بدأت فيليس تتكلم، لكن لم يخرج صوتها على نحو ملائم في البداية، فقد كان حادّاً بدرجة أعلى قليلاً من العادة عندما قالت،

«اعتقدنا أنه سيمكث شهراً، أو ربما مدة أطول، إذا سافر في مركب شراعي. أفترض أنه سافر في سفينة بخارية؟»

علّقت ابنة الخال هولمان، «احتاج الشيخ عوبديا غريمشو إلى أكثر من ستة أسابيع لكي يصل إلى أمريكا».

سأل القسيس، «أفترض أنه لا يستطيع بعدُ معرفة إلى أي مدى يُحب عمله الجديد؟»

قلتُ، «لا! لقد نزل إلى البر توّاً. إنها مجرد صفحة واحدة. سوف أقرؤها لكم، هل تأذنون لي بذلك؟»

'عزيزي بول، وصلنا سالمين إلى برّ الأمان بعد رحلة شاقة. أعتقد أنك ترغب في السماع بهذا، لكن السفينة البخارية العائدة إلى الوطن تُصدر إشارات للرسائل. سوف أكتب إليك قريباً. يبدو كما لو أن سنة قد مرَّت منذ مغادرتي هورنباي، وأطول من ذلك منذ مغادرتي للمزرعة. وصلتْ باقتي سالمة. بلِّغ تحياتي إلى أسرة هولمان. المخلص، إ. هـ.'.

قال القسيس، «ذلك ليس كثيراً بالتأكيد، لكن معرفة أنه في البر في هذه الليالي العاصفة أمر يريح القلب».

لم تقل فيليس شيئاً. أبقت رأسها محنياً فوق أشغالها، لكنني لا أعتقد أنها حبكت غرزة واحدة في أثناء قيامي بقراءة الرسالة. تساءلتُ عمّا إذا كانت قد فهمت ماذا كانت باقة الزهور تعني، لكنني لم أستطع أن أعرف. عندما رفعت وجهها في المرة التالية، كانت هناك بقعتان متوهجتان على وجنتيها اللتين كانتا شاحبتين جداً من قبل. بعد أن قضيت بضع ساعات هناك، كنتُ مضطراً إلى العودة إلى هورنباي. أخبرتهم بأنني لا أعرف متى أستطيع المجيء مرة أخرى، فنحن، أقصد الشركة، قد تعهدنا مشروع خط هينسليديل، وهو الفرع الذي كان هولدزورث المسكين يقوم بإجراء عمليات المساحة عليه عندما أُصيب بالحمى.

قالت ابنة الخال، «ولكن ستحصل على عطلة في عيد الميلاد. من المؤكد أنهم ليسوا كفرة إلى درجة أنهم يجعلونك تعمل فيها؟»

«ربما أن الفتى سوف يذهب إلى منزل أهله» قال القسيس ذلك كما لو أنه يُخفف من إلحاح زوجته، إلا أنني أعتقد أنه كان يريدني أن آتي على الرغم من كل ذلك. ثبَّتت فيليس عينيها عليَّ بتعبير حزين تصعب مقاومته. ولكنني في الواقع لم أفكر في المقاومة. وتحت إمرة رئيسي الجديد لم يكن لدي أي أمل في الحصول على عطلة طويلة بما فيه الكفاية لكي أكون قادراً على الذهاب إلى بيرمنغهام، للاطمئنان بالوقوف على أحوال والديَّ. وليس هناك أمر يمكن أن يكون سارّاً بالنسبة إليّ أكثر من قضاء بضعة أيام في منزل ابنتي الخال عندئذ. لذا فقد قررنا أن نلتقي في كنيسة هورنباي في يوم عيد الميلاد، وأن أرافقهم إلى المنزل بعد انتهاء الطقس الديني، وأن أبقى حتى نهاية اليوم التالي، إن كان ذلك ممكناً.

لم أكن قادراً على الوصول إلى الكنيسة حتى وقت متأخر من اليوم المُحدد، لذا فقد جلست في مقعد بالقرب من الباب وأنا أشعر بإحراج كبير، على الرغم من أنه لم يكن خطئي أنا في الواقع. عندما انتهى الطقس الديني، ذهبت ووقفت في الشرفة لكي أنتظر حضور ابنتي الخال. تجمّع بعض الأشخاص المهمين المنتمين إلى رعية الكنيسة في جماعة حيث كنتُ واقفاً، وتبادلوا التمنيات الطيبة بمناسبة الأعياد. كان الثلج قد بدأ بالهطول توّاً، وقد تسبب ذلك في قليل من التأخير، وانخرطوا في مزيد من الأحاديث. لم أكن مُنتبهاً لما

لا يُفترض أن أسمعه، إلى أن سمعتُ اسم فيليس هولمان. ثمّ أصغيت. أين كان الضرر؟

«لم أرَ قَطُّ شخصاً تغير هكذا!»

قال شخص آخر، «سألتُ السيدة هولمان، ’هل فيليس بخير؟‘ وقالت إنها كانت تعاني من نزلة برد أضعفت صحتها فحسب. ولم يبدُ أنها تعتبر في ذلك أمراً مهماً».

قالت واحدة من أكبر السيدات الفاضلات، «يُستحسن أن يعتنوا بها لأن فيليس تنحدر من أسرة يبدو أنها لا تعمَّر طويلاً، فأخت أمها، ليديا غرين، أي خالتها، ماتت من مرض أضوى جسدها عندما كانت في عمر هذه الفتاة».

قطع هذا الحديثَ المشؤومَ خروج القسيس وزوجته وابنته، وما تلاه من تبادل تحيات عيد الميلاد. كنتُ مصدوماً، وشعرت بانقباض في الصدر وقلق، وكدت ألا أكون قادراً على تقديم الردود الملائمة لتحيات أقاربي اللطيفة. نظرتُ بطرف عيني إلى فيليس. كانت بلا ريب قد أصبحت أطول وأخف وزناً، وأكثر نحفاً. ولكن كان هناك تدفق للون الأحمر على وجهها، خدعني فترة من الزمن، وجعلني أعتقد أنها كانت تبدو بخير كما هو حالها دائماً. لم أرَ شحوبها إلا عندما عُدنا إلى المزرعة، ولجأت إلى الصمت والهدوء. وبدت عيناها الرماديتان غائرتين وحزينتين، وكانت بشرتها شاحبة وبلا حيوية. ولكنها واصلت حياتها كالمعتاد تماماً، على الأقل، تماماً كما فعلت في آخر مرة كنتُ فيها هناك، وبدا أنها لم تكن تُعاني من أي

مرض. وكنتُ ميالاً إلى الاعتقاد أن ابنة الخال كانت على صواب عندما أجابت عن تساؤلات الثرثرة الطيبة، وقالت لهن إن فيليس كانت تعاني من آثار نزلة برد حادة ليس إلا. لقد سبق أن قلتُ إنني كنت سأمكث حتى نهاية اليوم التالي، وقالوا إن قدراً كبيراً جداً من الثلج قد تساقط، لكن ذلك لم يكن كل شيء على الرغم من أن الأرض كانت مُغطاة بطبقة عميقة من الثلج الأبيض. كان القسيس يقوم بإيواء ماشيته بقلق، ويُعِدُّ كل شيء استعداداً لاستمرار الحالة ذاتها من الطقس. وكان الرجال يقطعون الحطب، ويرسلون القمح إلى المطحنة لكي يُطحن قبل أن تُصبح الطريق غير سالكة للعربات والأحصنة. وكانت ابنة الخال وفيليس قد صعدتا إلى غرفة التفاح في الطابق العلوي لتغطية الفاكهة وحمايتها من الصقيع. قضيتُ الجزء الأكبر من الصباح في الخارج، ودخلتُ قبل الغداء بحوالى ساعة. وما أثار دهشتي، نظراً إلى أن فيليس كانت تُخطط لتكون مشغولة، أنني وجدتها جالسة عند المنضدة وقد أسندت وجهها إلى راحتيها وتقرأ، أو يبدو أنها كانت تقرأ. لم ترفع عينيها عندما دخلت، لكنها غمغمت شيئاً ما بشأن قيام أمها بإرسالها إلى الطابق السفلي بعيداً عن البرد. وخطر في بالي فجأة أنها كانت تبكي، لكنني عزوت ذلك إلى نوبة مزاج. ربما كان عليَّ أن أكون أعقل من الارتياب في غضب فيليس الهادئة اللطيفة، يا لها من فتاة مسكينة. انحنيت نحو الأسفل وبدأت بتحريك النار التي بدا أنها كانت مهمَلة. وعندما كان رأسي في الأسفل، سمعتُ صوتاً جعلني أتوقف وأُصغي. لقد كان صوت نشيج، إنه نشيج بائن متعذر الكبت. وقفت جافلاً.

صحتُ مُتجهاً نحوها ويدي ممدودة، «فيليس!» أردتُ أخذ يدها للتعاطف مع حزنها أياً كان. ولكنها كانت سريعة جداً بالنسبة إليّ، وسحبت يدها بعيداً عن متناول يدي، خوفاً من أن أحتجزها. وقالت في أثناء خروجها بسرعة من المنزل.

«لا تفعل يا بول! لا أستطيع احتمال ذلك!» ومرَّت بي وهي مازالت تنشج، وخرجت نحو الهواء الطلق اللاسع.

وقفتُ ساكناً وتساءلتُ. ما الذي يمكن أن يكون قد جرى لفيليس؟ لقد كان الوئام المثالي إلى أقصى درجة مخيماً على الأسرة، وكانت فيليس على وجه الخصوص، الطيبة واللطيفة كما هي عادة، محبوبة جداً إلى درجة أنهم لو اكتشفوا أن إصبعها يؤلمها لكان ذلك سيملأ قلوبهم بالحزن. هل فعلتُ شيئاً أزعجها؟ لا: لقد كانت تبكي قبل دخولي. ذهبتُ لأنظر في كتابها، وهو أحد تلك الكتب الإيطالية المُبهمة، فلم أستطع فهم أي شيء منه. ورأيت بعض الملاحظات المدونة بقلم رصاص على الهامش، بخط يد هولدزورث.

هل يمكن أن يكون ذلك؟ هل يمكن أن يكون ذلك هو سبب شحوبها، وإرهاق عينيها، وهزول جسمها، ونشيجها بتلك المعاناة؟ لقد خطرت لي هذه الفكرة مثل وميض برق في ليلة مُظلمة، فجعلتْ كلَّ الأشياء واضحة جداً إلى درجة أننا لا نستطيع نسيانها فيما بعد عند عودة الظلام الموحش. كنتُ ما أزال واقفاً والكتاب في يدي عندما سمعتُ خطوات ابنة الخال هولمان على الدرج. ونظراً إلى أنني لم أكن أرغب في التحدث إليها عندئذ، فقد حذوت حذو

فيليس وخرجت مندفعاً من المنزل. كان الثلج مفروشاً على الأرض، وكان بإمكاني تتبع أقدامها من العلامات التي تركتْها. واستطعت رؤية أين انضم الكلب روفر إليها. واصلت المسير حتى وصلت إلى كومة كبيرة من الحطب في البستان، كانت مجمّعة مقابل الجدار الخلفي لملحقات المبنى، وتذكرتُ عندئذ كيف أخبرتني فيليس في أول يوم عندما تمشينا معاً بأن هذه الكومة كانت صومعتها وملاذها عندما كانت طفلة، وكيف كانت معتادة على جلب كتابها للدراسة هنا، أو أشغالها، عندما لم تكن هناك حاجة إليها في المنزل. ومن الواضح أنها ذهبت الآن إلى مُعتكَف طفولتها هذا، غافلة عن الدليل الذي تركته لي بواسطة آثار قدميها على الثلج الذي تساقط مؤخراً. كانت الكومة عالية جداً. ولكنني كنتُ قادراً على رؤية هيئتها من خلال الفراغات البينية للعصي، على الرغم من أنني لم أُدرك فوراً كيف أستطيع الوصول إليها. لقد كانت جالسة على قطعة خشب وروفر بجوارها. وكانت قد وضعت خدها على رأس روفر، وذراعها حول رقبته، جزئياً كوسادة، وجزئياً من حاجة فطرية للدفء في ذلك اليوم القارس البرودة. كانت تتأوه في صوت منخفض مثل حيوان يتألم، أو ربما أشبه بعويل الريح. وكان روفر مرتاحاً جداً من ملاطفتها، وربما أيضاً متأثراً في تعاطف، فكان يضرب ذيله الثقيل على الأرض، لكن دون تحريك شعرة ما عدا ذلك، إلى أن سمع اقترابي بأذنيه المنتصبتين المتحفزتين. ثم هاجَ مع نبحةٍ مفاجئة قصيرة في ارتياب، كما لو كان سيترك سيدته. كنا كلانا، أنا وهو، ساكنين برهة. لم أكن متأكداً إذا كان ما كنتُ أتوق إلى عمله

حكيماً: ومع ذلك لم أكن قادراً على احتمال رؤية السكينة اللطيفة لحياة ابنة الخال العزيزة متداعية من معاناة اعتقدتُ أنني كنت قادراً على تخفيفها. ولكن أذنيْ روفر كانتا أكثر حدَّة من عدم سماع صوت أنفاسي الخافت: لقد سمعني، ووثب من تحت يد فيليس التي كانت تحيط به.

قالت بأنين، «أوه، لا تتركني يا روفر أنت أيضاً».

«فيليس!» قلتُ ذلك وعرفتُ من خروج روفر أن المدخل إلى حيث كانت جالسة هو في الجانب الآخر من الكومة. «اخرجي يا فيليس! أنت مُصابة بنزلة برد أصلاً، ولا يناسبك الجلوس هناك في يوم كهذا. أنت تعرفين كم سيجعلهم ذلك جميعهم مستائين وقلقين».

تنهدتْ، لكنها امتثلت. خرجت منحنية قليلاً، ووقفت منتصبة قبالتي في البستان المنعزل والخالي من الأوراق. بدا وجهها وديعاً جدّاً وحزيناً جدّاً إلى درجة أنني شعرت كما لو أن عليَّ أن أستميحها عذراً عن كلماتي الآمرة بحكم الضرورة.

قالت، «أشعر أحياناً أن المنزل منغلق جدّاً. وقد اعتدت الجلوس تحت كومة الحطب هذه عندما كنت طفلة. لقد كان لطفاً شديداً منك، لكن لم تكن هناك حاجة للحاق بي. أنا لا أُصاب بنزلات البرد بسهولة».

قلتُ، «تعالي معي يا فيليس إلى حظيرة الأبقار هذه. لدي ما أقوله لك، وإن كنتِ تستطيعين أنت تحمّل هذا البرد فأنا لا أستطيع تحمله».

أظنّ أنها كانت ستهرب مرة أخرى، لكن هبّة طاقتها كانت قد استنفِدَت جميعها. تبعتني مكرَهة بما فيه الكفاية بحيث كنت قادراً على ملاحظة ذلك. وكان المكان الذي أخذتها إليه مليئاً برائحة أنفاس الأبقار، وكان أدفأ قليلاً من الهواء في الخارج. وضعتها في الداخل، ووقفت أنا نفسي في المدخل، أُفكرُ بالطريقة الأفضل للبدء. وأخيراً باشرت بالحديث فجأة.

«يجب أن أفعل ما يلزم لكي لا تُصابي بنزلة بردٍ لأكثر من سبب، إذا كنتِ مريضة، فسيكون هولدزورث قلقاً وبائساً جداً هناك» (قصدت بذلك كندا).

ألقت نظرة ثاقبة نحوي، ثمَّ أدارت وجهها بعيداً بحركة ضَجِرَةٍ قليلاً. لو كانت قادرة على الهروب لفعلت ذلك، ولكنني جعلتُ وسيلة الخروج في يدي. وفكرتُ، «إذا بدأ المرء بعمل فإن عليه أن يُنجزه مهما كلف الأمر»، وتابعتُ بسرعة على أي حال.

«لقد تحدث بشأنك كثيراً قبيل رحيله في تلك الليلة بعد أن كان هنا، كما تعلمين، وكُنتِ قد أعطيتِه تلك الزهور». رفعت يديها لكي تُخفي وجهها، لكنها كانت تُصغي الآن، بل كانت كلها آذاناً صاغية. «لم يتحدث بشأنك قَطُّ من قبل، إلا أن الرحيل المفاجئ جعله يفتح قلبه، وأخبرني كم يُحبك، وكم يأمل لو تكوني زوجة له عندما يعود».

«لا تفعل». قالت ذلك وهي تلهث قليلاً لنُطق الكلمة التي حاولت عدة مرات قولها من قبل، إلا أن صوتها كان قد اختنق.

ووضعت يدها إلى الخلف الآن، وكانت قد أشاحت بوجهها عني تماماً، فتلمست باحثة عن يدي، وضغطتْ عليها ضغطة ناعمة متمهلة. ثمّ أنزلت ذراعيها على الحاجز الخشبي وأنزلت رأسها عليه وذرفت دموعها بصمت. لم أفهمها في الحال، وخشيت أن أكون قد أخطأتُ تخمين الحالة برمتها، وقمت بإزعاجها فحسب. اقتربت منها وقلتُ، «أوه، أنا آسف يا فيليس! اعتقدت أنه ربما كان يُهمك سماع ذلك. لقد تكلم بعاطفة جياشة كما لو كان يُحبك كثيراً، وظننت بطريقة ما أن ذلك سيسرّك».

رفعت رأسها ونظرت إليَّ. يا لها من نظرة! عبّرت عيناها، المتلألئتان بالدموع، عن سعادة غامرة. وكان فمها الرقيق مائلاً من الفرح، ووجهها مفعماً بالحيوية ومتورداً. ولكنها سرعان ما أخفت وجهها مرة أخرى، كما لو كانت خائفة من أن يكون مُعبِّراً جداً بما هو أكثر من امتنانها إلي الذي كانت تحاول التعبير عنه. وهكذا كان كل شيء على ما يرام عندئذ، وكان تخميني قائماً على أساس جيد! حاولت تذكُّر شيء آخر أُخبرها به ممّا قاله، لكنها أوقفتني مرة أخرى.

قالت، «لا تفعل». واستمرت بإبقاء وجهها مُغطّىً ومخفيّاً. وفي أقل من نصف دقيقة أضافت بصوتها الخفيض، «أرجوك يا بول، أعتقد أنني أُفضِّل عدم سماع أي شيء آخر، لا أعني سوى أن ما لديّ... لكن أنا ممتنة جداً... فقط... فقط، أعتقد أنني أُفضِّل سماع الباقي منه هو نفسه عندما يعود».

ثمّ بكت قليلاً، بطريقة مختلفة تماماً. لم أقل أي شيء آخر، بل انتظرتها. وقبل مرور وقت طويل، استدارت نحوي، إلا أنها لم تنظر في عيني، ووضعت يدها في يدي كما لو كنا طفلين، ثمّ قالت،

«من الأفضل أن نعود الآن. لا يظهر عليَّ أنني كنتُ أبكي، أليس كذلك؟»

كان كل ما أجبتُ به مجرد، «أنت تبدين كما لو أنك مصابة بنزلة برد حادة».

قالت، «أوه! لكنني في أفضل حال، مجرد برد. وركض جيد سوف يُدفئني. هيا يا بول!»

وهكذا ركضنا معاً، يداً بيد، إلى أن وصلنا إلى عتبة المنزل، فتوقفتَ وقالت:

«أرجوك يا بول، لن نتحدث بشأن ذلك مرة أخرى».

الجزء الرابع



عندما زرتهم في عيد الفصح سمعت أحاديث القيل والقال في الكنيسة تُثني على ابنة الخال هولمان بشأن نضارة ابنتها وجمالها، وقد نسوا تماماً تنبؤاتهم المشؤومة قبل ثلاثة أشهر. نظرتُ إلى فيليس فلم أستغرب قولهم، إذ إنني لم أرها منذ اليوم الذي تلا عيد الميلاد، فقد غادرت مزرعة الأمل بعد ساعات فقط من إعلامها بالخبر الذي أنعش مهجتها فجدد شبابها وأنعش حيويتها. لقد كانت ذكرى حديثنا في مأوى الأبقار واضحة في ذهني في أثناء نظري إليها، عندما كان يُعلَّق على مظهرها الصحي المشرق. وبمجرد أن التقت عيناها بعيني مرّرتْ ذكرياتُنا المشتركة معلومات بسرعة البرق من واحد إلى الآخر. التفتت بعيداً، واشتد تورد وجنتيها في أثناء قيامها بذلك، وبدت خجولة مني خلال الساعات الأولى بعد لقائنا، وشعرتُ بغيظ منها بسبب تجنبها المتعمد لي بعد طول غيابي. لقد تجاوزتُ حدودي المعتادة في إبلاغها بما أبلغتها به، إلا أنني لم أتلقَّ أي أمر بالتكتم، أو قدمتُ أي وعد لهولدزورث بأنني لن أكرر كلامه. ولكن كان ينتابني أحياناً شعور مُزعج، عندما كنت أفكر في ما فعلتُه

في غمرة الانفعال من رؤية فيليس مريضة جداً وتعاني من حزن شديد. كنت أنوي إبلاغ هولدزورث عندما أكتب له في المرة التالية. ولكن عندما كانت رسالتي نصف المكتملة أمامي، جلستُ وقلمي في يدي متردداً. لقد كنت متردداً بشأن الكشف عمّا اكتشفتُه أو خمَّنتُه من سريرة فيليس أكثر من قلقي لتكرار كلماته أمامها. لم أفكر أنني أملك أي حق لكي أقول له ما اعتقدت، وبالتحديد إنها تُحبه كثيراً إلى درجة أن غيابه أدى إلى إيذاء صحتها. ومع ذلك، ولكي أشرح ما الذي فعلته بإبلاغها كيف تحدث بشأنها في تلك الليلة الأخيرة، فلا بد أن أبيِّن أسبابي، لذا فقد قررت في داخلي ترك الأمر على ما هو عليه. وكما قالت لي إنها ترغب في سماع كافة التفاصيل والتصريحات الأكثر وضوحاً منه مباشرة، فكذلك هو، فينبغي له أن يُمتع نفسه باستخراج السر الرقيق السائغ من شفتيها العذريتين. لن أتخلى عن تخميناتي وتقديراتي وما يوشك أن يكون معرفة أكيدة لحالة قلبها. لقد تلقيت رسالتين من هولدزورث بعد أن استقر في عمله، وكانتا مفعمتين بالحيوية والطاقة. ولكن كان في كل واحدة منهما رسالة موجهة إلى الأسرة في مزرعة الأمل تتضمن ما هو أكثر من علاقة عادية، وذكْر طفيف، لكن مميز، لفيليس نفسها يبين أنها تحتل مكانة فريدة ومنفردة في ذاكرته. وقد أرسلتُ هاتين الرسالتين إلى القسيس، فقد كان متأكداً من أنه سيهتم بهما، حتى إن افترضنا أنه غير عارف بكاتبهما، حيث تمت كتابتهما بفطنة شديدة، وتمت صياغتهما بطريقة رائعة فأدخلتا، إن جاز التعبير، نفحة من الجو غير المألوف إلى حياته الضيقة. لقد اعتدتُ أن أتساءل ما هي المهنة أو العمل التجاري الذي كان من غير الممكن أن ينجح فيه القسيس نجاحاً باهراً، أقصد

ذهنياً، فيما لو حدث أن استُدعي إلى ذلك الشأن. فقد كان من الممكن أن يكون مُهندساً ممتازاً، على حد علمي، وكان لديه شغف بالبحر مثل الكثير من الرجال المحاصرين بالبر وهم الذين تُعدّ البحار العميقة بالنسبة إليهم لغزاً ومصدر تشويق. وكان يقرأ كُتب القانون باستمتاع، وحدث ذات مرة أن استعار كتاب دي لولم عن الدستور البريطاني (أو عنوان مشابه)، وتحدث عن الفقه القانوني إلى أن تخطى بكثير قدرتي على فهم الحديث. ولكن بالعودة إلى رسالتيْ هولدزورث، فإن القسيس عندما أعادهما، كتب أيضاً قائمة بأسئلة مُقترحة بعد التمعن في قراءتهما، كان عليَّ تمريرها في ردودي إلى هولدزورث، إلى أن فكرت في اقتراح تراسل مباشر بين الاثنين. تلك كانت هي حال الأمور بخصوص الشخص الغائب عندما ذهبت إلى المزرعة في زيارتي في عيد الفصح، وعندما وجدتُ فيليس في تلك الحالة من التحفظ الخجول نحوي والتي ذكرتها من قبل. ولأنني لم أكن متأكداً تماماً من أنني تصرفت بحكمة عندما أخبرتها بما أخبرتها به، فقد ظننت أنها كانت غير ممتنة. ربما ارتكبت خطأً أو حماقة، وكل ذلك من أجلها، وها هي ذي قد أصبحت صديقة لي بدرجة أقل من السابق. لقد دام هذا الفتور بضع ساعات فقط. أعتقد أنه بمجرد أنها كانت متأكدة تماماً من أنه لن يكون هناك تكرار، بالكلام أو بالنظر أو بالتلميح، للموضوع المهيمن على ذهنها، فقد عادت إلى أسلوبها الأخوي في التعامل معي. كان لديها الكثير لتقوله لي بشأن اهتماماتها الاعتيادية الخاصة: كيف أن روفر كان مريضاً، وكيف كانوا جميعهم قلقين، وكيف كانا هي وأبوها، بعد مناقشة قصيرة بينهما، حزينين كليهما إلى الدرجة نفسها بسبب

معاناة الكلب العزيز، حيث كان يتم تذكره في صلوات الأسرة، وكيف بدأ يتحسن في اليوم التالي تماماً، ثمّ كانت توشك أن توجهني إلى محادثة في موضوع بشأن نهايات الصلاة الصحيحة والعناية الإلهية الخاصة، وبأشياء أخرى لا أعرفها، إلا أنني 'حَرَنتُ' مثل حصان عربتهم العجوز، ورفضتُ التحرك خطوة في ذلك الاتجاه. ثم تحدثنا بحاضنات الدجاج المختلفة وأرتني الدجاجات التي كانت أمهات جيدات، وأخبرتني بِسِمات جميع الدواجن بأقصى درجة من حسن النية. واستمعتُ أنا بكل إخلاص، ذلك أنني أعتقد أنه كان هناك الكثير من الحقيقة في كل ما قالته. ثمّ تمشينا داخل الغابة، بعد مرج أشجار الدردار، وبحثنا كلانا عن أزهار الربيع المبكرة، والأوراق الخضراء النضرة المجعدة. ولم تعد خائفة من البقاء وحدها معي بعد اليوم الأول. لم أرَها قَطُّ من قبل جميلة أو سعيدة إلى هذه الدرجة. أعتقد أنه من المستبعد أنها كانت تعرف لماذا كانت سعيدة جدّاً طوال الوقت. أستطيع رؤيتها الآن، واقفة تحت الفروع المتبرعمة للأشجار الرمادية التي كانت تعلوها مسحةٌ من الخضرة وبدا أنها تتعمق يوماً بعد يوم، وقلنسوتها متدلية إلى الخلف على رقبتها، ويداها مليئتان بأزهار شقار الظل، وكانت غير واعية لتحديقي على الإطلاق، بل كانت مُنكبة على محاكاة عذبة لطائر على شجيرة أو شجرة في الجوار. لقد كانت ماهرة في فن التغريد، والرد على نغمات طيور مختلفة فقد كانت تعرف تغريد الطيور وعاداتها وأساليبها بدقةٍ، أكثر من أي شخص آخر عرفتُه في حياتي. وقد كانت تفعل ذلك في كثير من الأحيان، بناء على طلبي، في فصل الربيع الماضي. ولكنها في فصل الربيع هذا غرغرت وصفّرت وغردت،

تماماً كما كانت الطيور تفعل، انطلاقاً من السعادة الغامرة ذاتها التي كانت تملأ صدرها. لقد كانت قرة عين والدها، ومنحتها أمها حصتها من الحب إضافة إلى حصة الابن الذي توفي عندما كان رضيعاً. كنت قد سمعت ابنة الخال هولمان تغمغم، بعد نظرة طويلة حالمة إلى فيليس، وتقول في نفسها كم كانت تزداد شبهاً بجوني، وتهدئ نفسها بأصوات حزينة غير مفهومة، وبهزات رأس لطيفة كثيرة، وذلك بسبب الشعور المؤلم بخسارة لن تتقبلها أبداً في هذا العالم. كان العاملون القدامى في أرجاء المكان متعلقين بوفاء صامت بابنة الأرض، وهو أمر شائع بالنسبة إلى معظم العمال الزراعيين، وكان هذا الوفاء في معظم الأحيان لا يتحول إلى فعل أو تعبير. كانت ابنة الخال فيليس مثل وردة تفتحت على الجانب المشمس لمنزل منعزل، محمي من العواصف. قرأت في أحد كتب الشعر:

صبية لم يكن هناك من يُشيد بها، وقلة قليلة تحبها.

وكانت بيوت الشِعر تلك تُذكرني بطريقة ما بفيليس. ومع ذلك، فلم تكن صحيحة معها أيضاً. لم أسمع أحداً يمدحها أبداً، وقلة قليلة جدّاً التي كانت تُحبها خارج نطاق أسرتها، لكن على الرغم من أن أحداً لم يجهر باستحسانه، فقد كانت دائماً تتصرف بطريقة قويمة في نظر والديها، انطلاقاً من طيبة وحكمة طبيعية. لم يُذكر اسم هولدزورث مُطلقاً بيننا عندما كنا وحدنا، لكنني كنت أرسل رسائله إلى القسيس كما ذكرتُ سابقاً. وفي مرات عديدة كان يبدأ بالحديث بشأن صديقنا الغائب وهو يُدخن غليونه بعد الانتهاء من عمل اليوم. عندئذ كانت فيليس تنزل رأسها قليلاً فوق أشغالها، وتصغي في صمت.

«إنني أفتقده أكثر مما كنت أتوقع، لا أقصد الإهانة لك يا بول. قلت ذات مرة إن رفقته مثل شُرب جرعة من الكحول، وكان ذلك قبل أن أعرفه جيداً. وربما أبديتُ رأيي بكل صراحة، ففي عقول بعض الرجال، يظهر كل شيء بقوة، ويتكلمون وفقاً لذلك، وهكذا فعل هو. وظننت من مراقبتي عديمة الجدوى أن كلماته لم تكن صحيحة وجادة. وما كانت لتكون كذلك لو أنني استخدمتها أنا، لكنها كانت كذلك بالنسبة إلى رجل في مستواه الإدراكي. فكرت في القَدْر الذي عاملته فيه بخشونة، عندما كان الأخ روبنسون هنا يوم الخميس الماضي، وأخبرني أن اقتباساً صغيراً ضعيفاً، كنت أقتبسه من قصيدة جورجيكس الممتعة، يُعدّ ثرثرة باطلة ووثنية تجديفية. وذهب إلى حد القول إنه من خلال تعلم لغات أخرى غير لغتنا، فإننا كنا نتحدى غاية الرب إذ قال، عند بناء برج بابل، إنه سوف ينوِّع لغاتهم فلا يتفاهمون. وكما كان الأخ روبنسون بالنسبة إليّ، فهكذا كنتُ أنا بالنسبة إلى سرعة بديهة هولدزورث وتيقظ حواسه وكلماته الجاهزة.

كانت السحابة الصغيرة الأولى التي حجبت طمأنينتي قد أتت على هيئة رسالة من كندا تحتوي بضع جُمل كدرتني أكثر مما كان ينبغي لها أن تفعل عند الحكم من مجرد الكلمات المستخدَمة. وهذه هي: «كنتُ سأشعر بوحشة كبيرة في هذا المكان النائي لولا صداقة كوّنتها مع كندي من أصل فرنسي اسمه فينتادور، فهو وعائلته يشكلون مصدر تسلية وسلوى بالنسبة إليّ في الأمسيات الطويلة. ولم يسبق لي قَطُّ سماع موسيقى صوتية عذبة مثل أصوات صبيان فينتادور وبناته في أغانيهم المتعددة الأصوات. كما أن العنصر

الأجنبي المُستبقى في طباعهم وأسلوبهم في العيش يُذكرني ببعض أسعد أيام حياتي. ولوسيل، وهي الابنة الثانية، تُشبه فيليس هولمان بشكل غريب». قلتُ لنفسي عبثاً «من المحتمل أن هذا الشبه هو الذي جعله يسعد برفقة أسرة فينتادور». وأخبرتُ مخيلتي القلقة بلا طائل بأن تلك العلاقة الحميمية طبيعة جداً، وأنه ليست هناك أي علامة تُشير إلى أنها ستُفضي إلى أي نتيجة يُتوقَّع أن تُزعجني. لقد كان لدي هاجس، وكُنتُ منزعجاً، ولم أكن قادراً على إقناع نفسي أنه لا مبرر لذلك الهاجس. يمكنني القول إن هاجسي قد أصبح أكثر إلحاحاً وأكثر حدّة من الشكوك التي كانت تقتحم عقلي والمتعلقة بما إذا كنتُ قد أحسنت صنعاً بنقل كلام هولدزورث إلى فيليس. كانت حالتها من السعادة المفعمة بالحيوية في هذا الصيف مختلفةً بشكل ملحوظ مقارنة بالسكينة الهادئة في الأيام السابقة. وفي أثناء تفكيري العميق لملاحظة هذا الأمر، وقعت عيناي على عينيها، فتوردت خجلاً وامتلأت كلها بالحيوية، متوقعة أنني كنتُ أتذكر سرَّنا المشترك. نزلت عيناها قبل عيني، كما لو أنها بصعوبة كانت قادرة على احتمال أن أرى ما تُفشيه نظراتها المشرقة. ومع ذلك، فكرت مرة أخرى، وواسيت نفسي من خلال التفكير في أنه لو كان هذا التغيير ليس سوى تصورات سخيفة مني، فلا بد أن يكون والدها أو والدتها قد أدركاه. ولكنهما استمرا بحالة من عدم الشعور الهادئ والسكينة التامة.

كان هناك تغيير في حياتي يقترب بسرعة. ففي شهر تموز/ يوليو من هذه السنة، تنتهي وظيفتي في سكة الحديد وفروعها. وكانت خطوط سكة الحديد قد أُنجِزت بالكامل، ويتعين عليَّ مغادرة المقاطعة والعودة إلى بيرمنغهام، حيث كان هناك عمل

مناسب مخصص لي فعليّاً في عمل والدي المزدهر. ولكن قبل رحيلي من الشمال، كان من المسلَّم به بيننا جميعنا أنه عليَّ الذهاب لزيارة مزرعة الأمل بضعة أسابيع. وكان أبي مسروراً جداً بهذا البرنامج بقدر سروري أنا. وتحدثتْ أسرة ابنتي الخال العزيزة أحياناً كثيرة بالأشياء التي يُتوقع القيام بعملها، والمناظر التي سيُطلِعوني عليها في أثناء هذه الزيارة. لقد كان افتقاري إلى الحكمة في قيامي بإبلاغ 'ذلك الأمر' (أخفيتُ تحت تلكما الكلمتين المبهمتين السر الطائش الذي أفشيته لفيليس) هو العائق الوحيد أمام توقعاتي بالبهجة.

لقد كانت طرق العيش في مزرعة الأمل أبسط من أن يؤدي حضوري إليهم إلى إحداث أدنى اختلال. كنت أعرف غرفتي، مثل ابن في هذا المنزل. وأعرف المجرى المعتاد لأيامهم، وأنه كان متوقعاً مني اتباعه كفرد من أفراد الأسرة. خيمت سكينة الصيف الشديدة على المكان. وكان الهواء الذهبي الدافئ مليئاً بغمغمة حشرات قريبة، وبالأصوات الأبعد في الحقول، وبالقعقعة الواضحة البعيدة لعربات تسير فوق مسارات مرصوفة بالحجارة على بُعد أميال. وكان الحر شديداً جداً فلم تستطع الطيور أن تغرد، وبين الفينة والأخرى كان يمكن للمرء سماع هديل حمام الورشان في الأشجار بعد حقل شجر الدردار. وقفت المواشي في البركة، التي كانت مياهها على عمق يصل إلى الرُّكب، تُبعد الذباب عنها بتحريك ذيولها. ووقف القسيس في حقل القش يلهث ويبتسم، دون قبعة أو لِفاع عنق أو معطف أو صُدرَة. وكانت فيليس تقود طابوراً من عمال المزرعة، يُقلّبون صفوف القش الفواح المقطوعة بحركة متأنية. ذهبتْ إلى نهاية المزرعة، حيث سياج الأشجار، ثمّ ألقت مِدَمّتها

وجاءت إليَّ بترحيبها الأخوي المنطلق. قال القسيس، «هيا يا بول! نحن في حاجة إلى كل يد تساعدنا في الاستفادة من أشعة شمس اليوم. 'أياً كان ما تجده يدك لِتفعله فافعله بكل قوَّتِكَ.' سيكون تغييراً صحياً في العمل بالنسبة إليك أيها الفتى. وأنا أجد أفضل راحة في تغيير العمل». وهكذا ذهبتُ، كعامل مطيع أتبع فيليس. لقد كان هناك التمييز البدائي حسب المنزلة، فكان الصبي الذي يُخيف العصافير ليُبعدها عن الفاكهة في مؤخرة طابورنا. ولم نُغادر حتى غابت الشمس الحمراء وراء شجر التنوب المتاخم للأرض المشاع. ثمّ ذهبنا إلى المنزل لتناول وجبة العشاء، وتلتها صلوات، ثمّ الذهاب للنوم. كان هناك طير ما يغرد بعيداً حتى وقت متأخر من الليل، وقد سمعته من خلال نافذتي المفتوحة، وبدأت الدواجن بخشخشتها وقوقأتها في بواكير الصباح. كنتُ قد حملتُ معي ما أحتاج إليه بصورة فورية من أمتعة من مسكني، وأرسلت البقية مع ساعي البريد الذي أحضرها إلى المزرعة في وقت مبكر من ذلك الصباح، وأحضر معها إلى المزرعة بضع رسائل كانت قد وصلت منذ رحيلي. كنتُ أتحدث إلى ابنة الخال هولمان في غرفة الأسرة حول الطرق التي تستخدمها أمي في صنع الخبز، وأذكُر أن ابنة الخال هولمان كانت تطرح عليَّ أسئلة، وجعلتني أذهب إلى ما هو أبعد بكثير من حدود قدرتي على فهم الموضوع، عندما قام أحد الرجال بإحضار الرسائل إلى الداخل، وكان عليَّ أن أدفع بعض النقود لحامل الرسائل مقابل العناء الذي تجشمه قبل أن أتمكن من النظر إليها. فاتورة - رسالة كندية! أي غريزة جعلتني أشعر بالامتنان لأنني كنتُ وحيداً مع ابنة الخال العزيزة الغافلة؟ وما الذي جعلني

أضعهما بسرعة في جيب معطفي؟ لا أعرف. انتابني شعور غريب وشعرت بغثيان، وأجبت إجابات غير ذات صلة بالموضوع، إنني خائف. ثمّ ذهبت إلى غرفتي بدعوى حمل صناديقي. جلستُ على طرف سريري وفتحتُ رسالتي التي وصلتني من هولدزورث. وبدا كما لو أنني كنت قد قرأت محتوياتها من قبل وعرفت تماماً ماذا كان لديه ليقوله. عرفتُ أنه كان سيتزوج من لوسيل فينتادور، لا، لقد كان متزوجاً، فاليوم هو الخامس من تموز/ يوليو، وكان قد كتب إليَّ قائلاً إن موعد زواجه قد حُدِّد في التاسع والعشرين من حزيران/ يونيو. فهمتُ كل الأسباب التي قدّمها، وكل الأفراح التي مرَّ بها. حملتُ الرسالة بشكل غير محكم في يديّ، ونظرت في الفراغ، ومع ذلك رأيتُ عش طائر الشرشور على جذع شجرة تفاح كبيرة مُغطى بنبات الحزاز مقابل نافذتي، ورأيت العصفورة الأم تأتي مرفرفة لإطعام صغيرها، وعلى الرغم من ذلك فلم أره، على الرغم من أنه بدا لي فيما بعد كما لو أنه كان بمقدوري رسم كلّ غصن وكل ريشة. حرضني على التصرف أصوات مرحة وأصوات أقدام ريفية تمشي بتثاقل داخلة إلى المنزل من أجل تناول وجبة منتصف النهار. عرفتُ أنّ عليَّ أن أنزل لتناول وجبة الغداء. وعرفتُ أيضاً أنه ينبغي لي أن أُخبرَ فيليس، لأن هولدزورث، انطلاقاً من أنانيته السعيدة وحماقته المولعة بكل جديد، كان قد وضع ملحوظة هامشية تقول إنه كان سيرسل بطاقات الزفاف إليَّ وإلى بعض المعارف في هورنباي وفي إلثام، وإلى «أصدقائه اللطفاء في مزرعة الأمل». لقد اضمحلت فيليس لتُصبِحَ واحدة من «الأصدقاء اللطفاء». لا أعرف كيف تناولتُ غداء ذلك اليوم. أذكُر أنني أجبرت نفسي على الأكل،

وتكلمتُ بصعوبة، لكنني أذكر أيضاً النظرة المتسائلة في عيني القسيس. لم يكن من النوع الذي يُفكر في السوء دون سبب، لكن كان من الممكن لكثيرين أن يظنوا بأنني كنت ثملاً. وبمجرد أن كان بمقدوري ترك المائدة بأدب، غادرت قائلاً إنني سأخرج في نزهة على الأقدام. في البداية، لا بد أنني حاولت التفكير في الصدمة من خلال المشي السريع، ذلك أنني تهتُ في الأراضي البرية المرتفعة أبعد بكثير من الأرض المشاع المغطاة بنبات القندول، قبل أن أضطر إلى تهدئة وتيرة سيري بسبب الإنهاك. بقيتُ أتمنى.. أوه! كم تمنيت بشدة لو أنني لم أرتكب قَطُّ ذلك الخطأ، ولو أن تلك النصف ساعة من الرعونة كان يُمكن أن تُمحى. كان يتناوب مع هذا التمني غضبٌ بشأن ما أعتقد أنه كان ظلماً كبيراً من طرف هولدزورث. أظن أنني مكثتُ في ذلك المكان المنعزل ساعة كاملة أو أكثر، ثم عدتُ نحو المنزل عازماً على التغلب على التردد بإبلاغ فيليس في أول فرصة، لكني كنت متخوفاً من تنفيذ ما عزمت عليه كثيراً إلى درجة أنني عندما دخلت إلى المنزل ورأيتُ فيليس وحدها في المطبخ (الأبواب والنوافذ مفتوحة على مصاريعها في الطقس شديد الحرارة)، شعرتُ بغثيان من الذعر. كانت واقفة بجانب خزانة أدوات المطبخ، تقوم بتقطيع رغيف خبز منزلي كبير الحجم إلى قطع من الخبز من أجل العمال الجائعين الذين يمكن أن يدخلوا في أي لحظة، فالسحب الرعدية الكثيفة كانت تنتشر في السماء. نظرت حولها عندما سمعت خطواتي.

قالت بصوتها اللطيف الهادئ، «يُفترض أن تكون في الحقل تُساعد في جمع القش». وكنتُ قد سمعتها في أثناء اقترابي من

المنزل تُدندن لحن ترنيمة ما، وبدا أن سكِينة ذلك كانت تخيم عليها الآن.

قلت: «ربما كان ينبغي لي ذلك. يبدو كما لو أنها ستُمطر».

قالت: «نعم. هناك صوت رعد في الأرجاء. لقد اضطرت أمي إلى الذهاب للفراش بسبب إحدى نوبات آلام الرأس الشديدة التي تعاني منها. الآن وقد دخلت...».

قلتُ مُندفعاً إلى موضوعي ومقاطعاً لها، «فيليس... لقد ذهبتُ في مشية طويلة لكي أفكر في شأن رسالة استلمتها هذا الصباح، رسالة من كندا. أنت لا تعرفين مدى الحزن الذي انتابني بسببها. مددت يدي لأعطيها الرسالة في أثناء حديثي. تغير لونها قليلاً، وأظن أن ذلك كان انعكاساً لتعابير وجهي، وليس لأنها كوَّنت أي فكرة مُحددة من كلامي. لم تكن قد أخذت الرسالة بعد، فاضطررت إلى أن آمرها بقراءتها، قبل أن تفهم ما الذي كنتُ أريده. جلستْ بشكل مفاجئ إلى حد ما وهي تأخذها بيديها وبسطتها على خزانة أدوات المطبخ أمامها، وسندت جبينها إلى راحتي يديها، وذراعاها على الطاولة، وأشاحت بوجهها قليلاً، وبالتالي فقد كانت ملامحها محجوبة. نظرتُ إلى الخارج من النافذة المفتوحة وفي قلبي حزن شديد. كم بدا كل شيء في فناء المزرعة هادئاً! سكينة ورخاء. وكم كان صمت المنزل هادئاً وعميقاً! واستمرت الساعة غير المرئية، المعلقة عند الدرج العريض، بإصدار صوت تكّاتها، وسمعت الخشخشة مرة واحدة عندما قلبتْ فيليس صفحة الورقة الرقيقة. لا بد أنها قرأت حتى النهاية. ومع ذلك لم تحرك ساكناً، أو تنبس ببنت

شفة، أو حتى تتنهد. واصلتُ النظر إلى الخارج من النافذة ويداي في جيبي. إنني أتساءل كم مرَّ من الوقت؟ بدا لي كأنه دهر، وثقيل. نظرتُ نحوها بعد مرور وقت طويل. ولا بد أنها شعرت بنظرتي، حيث إنها غيرت وضعيتها بحركة سريعة حادة، ونظرت في عيني.

قالت، «لا تبدُ آسفاً جداً يا بول. أرجوك، لا تفعل. فلا أستطيع احتمال ذلك. ليس هناك ما يدعو إلى الأسف. على الأقل أظن ذلك. أنت لم ترتكب أي خطأ على أي حال». شعرت بأنني تأوهت، لكن لا أعتقد أنها سمعتني. وتابعتْ، «وهو... ليس هناك أي خطأ في زواجه، أليس كذلك؟ آمل بكل تأكيد أن يكون سعيداً. أوه! كم آمل ذلك!» كانت هذه الكلمات الأخيرة مثل نحيب. ولكنني أعتقد أنها كانت تخشى أن تنهار، فقد غيرتْ طبقة الصوت التي كانت تتكلم بها، واستعجلتْ.

قالت، «لوسيل... يُقابله في الإنجليزية لوسي، حسب ظني؟ لوسيل هولدزورث! إنه اسم جميل. وآمل... نسيت ما كنتُ سأقوله. أوه! لقد كان هذا. أعتقد يا بول أننا لسنا بحاجة إلى الحديث بهذا مرة أخرى أبداً. تذكر أنه لا ضرورة لأن تشعر بأسف فحسب. أنت لم ترتكب أي خطأ. لقد كنتَ لطيفاً جداً، جداً. وإذا رأيتك حزيناً فلا أعرف ماذا يمكنني أن أفعل. ربما أنهار، أنت تعرف». أظن أنها كانت قريبة جداً من فعل ذلك، ولكن العاصفة المظلمة وصلت في تلاطم، وبدا أن السحابة الرعدية قصفت فوق المنزل مباشرة. استيقظت والدتها من غفوة ونادت ابنتها فيليس. ودخل الرجال والنساء من حقل القش يركضون بحثاً عن مأوى، وكانوا مبتلين تماماً. تبعهم القسيس مُبتسماً ومتحمساً على نحو غير

كريه من حرب عوامل الطبيعة، فمعظم القش كان قد وُضِع في مكان آمن في حظيرة الحقل نتيجة العمل الشاق طوال اليوم الصيفي الطويل. وفي أثناء النشاط الصاخب الذي تلا، التقيتُ صدفة مع فيليس التي كانت منشغلة دائماً، وتقوم دائماً بعمل الشيء الصحيح، كما كان يبدو لي. وعندما كنتُ منفرداً في غرفتي في الليل، سمحتُ لنفسي بالشعور بالراحة، وبالاعتقاد أن الأسوأ قد انتهى، وأنه لم يكن سيئاً جداً على الرغم من كل شيء. إلا أن الأيام التالية كانت بائسة جداً. كنتُ أعتقد أحياناً أنه لا بد أن تكون مخيلتي هي التي صوَّرت لي أن فيليس قد تغيرت بصورة غريبة، ذلك أنه من المؤكد لو أن فكرتي هذه كانت قائمة على أساس قوي لكان والداها، اللذان من لحمها ودمها، هما أول من لاحظها. ولكنهما واصلا طمأنينتهما ورضاهما المنزلي، لا بل مع قدر من البهجة أكبر قليلاً من المعتاد حيث كان «محصول الثمار الأولي»، كما أسماه القسيس، وافراً أكثر من المعتاد، وكان هناك الكثير متوافراً في كل مكان ما جعل أكثر العمال بؤساً يُشاركون. وبعد تلك العاصفة الرعدية، جاءت بضعة أيام صيفية هادئة جميلة، تم خلالها نقل كل القش. ثمّ تلتها أمطار خفيفة على فترة طويلة ملأت أكواز الذرة، وجعلت العشب المحصود ينبت من جديد. منح القسيس نفسه بضع ساعات أخرى من الراحة والتنعم بالمنزل أكثر من العادة في نوبة المطر هذه: كان الصقيع الأرضي الصلب هو عطلته الشتوية، وهذه الأيام الماطرة، بعد جمع القش، هي عطلته الصيفية. جلسنا والنوافذ مفتوحة، وجلب المطرُ الخفيف المتساقط الشذى والانتعاش اللذين تدفقا إلى غرفة الأسرة، في حين لا بد أنه كان للطقطقة الهادئة المتواصلة بين أوراق الأشجار في الخارج، كباقي الأصوات الدائمة اللطيفة الأخرى، كان لها تأثير

مهدئ لأعصاب الناس السعداء، مثل تأثير عجلات الطاحونة وبقبقة الينابيع. ولكن كان هناك اثنان منا غير سعيدَيْن. كنتُ متأكداً من نفسي، بوصفي أحدهما. وكنت أشعر بها هو أسوأ من اليقين، إذ إنني كنت قلقاً بشكل يدعو إلى الأسى بشأن فيليس. ومنذ يوم العاصفة الرعدية ذاك، كانت هناك نبرة مختلفة حادة وجديدة بالنسبة إليّ في صوتها، فقد كان هناك نوع من الصخب في نبرتها، ولم تكن هناك أي طمأنينة في عينيها المضطربتين، وكان لونها يتغيّر دون سبب أستطيع أن أعرفه. وكان القسيس سعيداً، بل كان في غفلة عمّا يهمه أكثر، فجلب كُتُبَه ومُجلداته والكتب الإغريقية التي كان قد تعلم ما فيها. ولا أعرف ما إذا كان يقرأ لي ويتكلم معي أم يقرأ لفيليس ويتكلم معها، ولكن انطلاقاً من شعوري الغريزي بأنها لم تكن، ولا يمكن أن تكون مهتمة بالتفاصيل الهادئة الغريبة جداً عن الاضطراب الذي كان في قلبها، فقد أجبرت نفسي على الاستماع، وعلى الفهم إن كان ذلك ممكناً.

قال القسيس وهو ينقر على الكتاب القديم، المُجلّد بالرَّق، الذي كان يحمله، «انظر هنا! يتحدث في القصيدة الزراعية الأولى بشأن التسوية والري، وبعد ذلك بقليل يشدِّد على اختيار أفضل البذور، وينصحنا بالمحافظة على شبكة مصارف المياه سالكة. مرة أخرى، ليس بإمكان أي مزارع اسكتلندي تقديم نصيحةٍ أكثرَ فطنةً من قَطْع أعشاب الأراضي خفيفة العشب والندى عليها، على الرغم من أن ذلك ينطوي على عمل ليلي. إن ذلك كله هو حقيقة حية في الوقت الحاضر». بدأ يضرب بمسطرة على ركبته في إيقاع زمني لبعض أبيات الشعر اللاتينية التي قرأها بصوت مرتفع في تلك

اللحظة. أعتقد أن الترنيمة الرتيبة قد ضايقت فيليس وجعلتها تتصرف بنشاط لافت للنظر، ذلك أنني أذكر الحبك السريع وقَطْع الخيط الذي كانت تحيك به. لا أستطيع الآن سماع تلك الطقطقة تتكرر دون الشك في أن هناك شيئاً من ألم حاد أو جرح يؤرق قلب الذي يقوم بالعمل. لاحظت ابنة الخال هولمان، في أثناء حياكتها الهادئة، السبب الذي جعل فيليس تقطع تقدُّمها في الخياطة بشكل مستمر إلى تلك الدرجة.

«أخشى أن يكون الخيط هو السبب». قالت ذلك بصوت لطيف متعاطف، لكن كان ذلك كثيراً جداً بالنسبة إلى فيليس.

«الخيط سيّئ.. كل شيء سيّئ.. لقد سئمت كل شيء!» ثمّ أنزلت أشغالها وغادرت الغرفة على عجل. لا أعتقد أن فيليس سبق أن أظهرت مثل هذا المزاج العصبي من قبل. في أُسَرٍ كثيرة، ما كان لهذه النبرة وتلك الطريقة أن تُلاحظ. ولكن هنا كان لها وقعُ مفاجأة حادٌّ على جو المنزل الهادئ اللطيف. أنزل القسيس المسطرة والكتاب، ورفع نظارته إلى الأعلى نحو جبهته. وبدت الأم كئيبة برهة، ثمّ لطّفت ملامحها وقالت في نبرة تفسيرية، «إنه الطقس، حسب ظني. يشعر به بعض الناس بطريقة مختلفة عن غيرهم. إنه يُسبب دائماً صداعاً بالنسبة إليّ». نهضت لتلحق بابنتها، لكنها في منتصف الطريق إلى الباب غيّرت رأيها وعادت إلى كرسيها. هي أم طيبة! لقد توقعت أنه من الأفضل كتم الانبجاس المفاجئ غير العادي للمزاج، من خلال التظاهر بعدم منحه الكثير من الاهتمام. وقالت، «تابع أيها القسيس. إن ما تقرأ عنه مشوِّق جداً، وعندما لا أفهمه تماماً، فإنني أُحِبُّ نغمة صوتك». وهكذا تابع القسيس

القراءة، لكن بفتور وعلى نحو غير منتظم، ولم يعد يضرب مسطرته في إيقاع لأي من أبيات الشعر اللاتينية. عندما حلّ الغسق في وقت مبكر، من مساء ذلك اليوم من ليالي تموز/ يوليو، بسبب السماء الملبدة بالغيوم، عادت فيليس في هدوء، وهي تتصرف كما لو أن شيئاً لم يحدث. رفعت أشغالها، لكن كان الظلام أشدّ من أن تحيك غرزاً كثيرة فأنزلته في الحال. بعدئذ رأيت كيف انسلت يدها في يد أمها، وكيف أن هذه الأخيرة لاطفتها بتربيتات خفيفة هادئة. وكان القسيس مدركاً تماماً، بقدر ما كنت أنا مُدركاً، لهذه التمثيلية الإيمائية، فواصل الحديث بنبرة سعيدة أكثر بأمور، أعتقدُ جازماً أنها كانت غير مثيرة للاهتمام بالنسبة إليه في ذلك الوقت بقدر ما كانت غير مثيرة للاهتمام بالنسبة إليّ، وهذا يعني الكثير جداً، ويبين إلى أي مدى كان ما يجري حوله حقيقياً أكثر من عادات القدماء الزراعية، حتى بالنسبة إلى مُزارع.

وهنا، أتذكر أمراً آخر.. وهو هجوم قامت به الخادمة بيتّي عليّ في أحد الأيام عند دخولي من خلال باب المطبخ حيث كانت تمخض اللبن، فتوقفتُ لكي أطلب منها شربة من مخيض اللبن.

فقالت، (كانت قد اعتمدت عادة الأسرة في مُخاطبتي عموماً بلقب ابن الخال بول، وكانت تتحدث إليَّ دائماً بتلك الصيغة)، «أودّ أن أقول، يا ابن الخال بول، هناك خلل ما أصاب عزيزتنا فيليس، وظني هو أنّ لديك تقديراً جيداً لما هو ذلك الخلل. إنها ليست شخصاً يمكن مصادقته مثلك»، (ليست مجاملة، إذ إن بيتّي لم تكن قطّ مجامِلة حتى مع أولئك الذين تشعر نحوهم بأقصى قدر من الاحترام)، «لكنني أفضل لو أن هولدزورث ذاك لم يقترب منا قَطُّ.

وها أنا أصارحك بقدر قليل من رأيي». ويا له من قدر قليل غير مُرضٍ على الإطلاق. لم أعرف بماذا أرد على اللمحة من الوضع الفعلي للحالة المتضمنة في كلام المرأة المتبصر. لذا حاولت التملص منها من خلال التظاهر بالمفاجأة من تأكيدها الأول.

قلتُ: «خلل أصاب فيليس! أرغب في معرفة لماذا تظنين أن هناك سوءاً ما قد أصابها. إنها تبدو نَضِرة إلى درجة يمكن لأي شخص أن يراها».

قالت: «يا لك من صبي مسكين! إنك مجرد طفل كبير على الرغم من كل شيء. وربما أنك لم تسمع من قبل بتورد الحمى. ولكنك أعقل من أن تفعل ذلك يا صديقي اللطيف! لذا، فلا تظن أنك سوف تتملص مني بالنضارة والتألق وبمثل هذا الكلام. ما الذي يجعلها تتمشي ساعات وساعات في الليل، في حين كانت معتادة أن تكون نائمة في الفراش؟ إنني أنام في الغرفة المجاورة لغرفتها، وأسمعها بكل وضوح. وما الذي يجعلها تأتي لاهثة وجاهزة للسقوط في ذلك الكرسي»، قالت ذلك وهي تومئ إلى كرسي بالقرب من الباب.. «وهي تقول ’أوه! هلا أعطيتِني بعض الماء يا بيتّي من فضلك؟‘ تلك هي الطريقة التي تدخل فيها الآن، في حين كانت في السابق تعود نشيطة وتفيض بالحيوية كما خرجت. إذا كان صديقك ذاك قد خدعها، فهناك الكثير مما ينبغي له أن يتحمل مسؤوليته. إنها فتاة جميلة وتتمتع بصحة جيدة ويُعتمد عليها إلى حد بعيد، وهي قرّة عين والدها ووالدتها أيضاً، فبالنسبة إليها فهي التي تأتي في المرتبة الثانية بعد القسيس. ويتعين عليك أن تبحث عن رجُلك، فأنا شخصياً لا أحتمل أن تتعرض عزيزتنا فيليس لأي أذى».

ماذا كان عليَّ أن أفعل؟ أردتُ تبرير ما فعله هولدزورث وإبقاء سر فيليس طي الكتمان وتهدئة المرأة، كل ذلك في نفس الوقت. أخشى أنني لم أتخذ المسار الأفضل.

قلت: «لا أعتقد أن هولدزورث قد نطق بكلمة.. بكلمة حب واحدة لها طوال حياته. أنا متأكد أنه لم يفعل».

قالت: «هيه. هيه! ولكن هناك عيون، وهناك أيدٍ، إضافة إلى الألسنة. ولدى الرجل اثنتان من الأولى وواحد من الأخرى».

قلتُ، «وهي صغيرة جداً. هل تفترضي أن والديها لم يريا ذلك الأمر؟»

قالت، «حسناً! إذا كنتَ سترميني بذلك، فسوف أقول بصراحة، 'لا'. إنهما يسميانها 'الطفلة' منذ فترة طويلة.. 'الطفلة' هو دائماً الاسم الذي يستخدمانه عند الحديث بشأنها فيما بينهما، كما لو أنه لم يسبق أن كان لدى أي شخص آخر حَمل وديع أمامه قبلهما.. لقد كبرت لتُصبح امرأة تحت نواظرهما، وما زالا ينظران إليها كما لو كانت مرتدية ملابسها الطويلة الخاصة بالأطفال. ولم يسبق لكَ أن سمعتَ برجل وقع في حب رضيعة في ملابس الأطفال الطويلة التي تُغطي القدمين!»

قلتُ وأنا أضحك قليلاً، «لا!» لكنها واصلت في جدية كقاضٍ.

«هيه! كما ترى أنت تضحك لمجرد التفكير بالأمر.. إنني متأكدة من أن القسيس، على الرغم من أنه رجل لا يضحك، كان سيخرج عن طوره من فكرة الوقوع في حب الطفلة. إلى أين رحل هولدزورث؟»

قلت باختصار، «كندا».

ردت بحدة طبع، «كندا هنا، كندا هناك. قُل لي كم يبعد عنا، بدلاً من كلامك المبهم. هل يبعد رحلة يومين؟ أم ثلاثة أيام؟ أم أسبوع؟»

صحتُ في حالة يأس، «إنه بعيد جداً.. ثلاثة أسابيع على الأقل، وهو إما متزوج أو إنه سيتزوج، هناك». توقعتُ موجة جديدة من الغضب، لكن لا. كان الأمر جدياً للغاية. جلست بيتّي، ولزمت الصمت بضع دقائق. لقد بدت بائسة جداً وحزينة إلى درجة أنه لم يكن في وسعي إلا أن أتابع وأثق بها، وأن أكشف لها سري.

«إن ما قلتِه أنتِ صحيح تماماً. أنا أعرف أنه لم يُحدثها بكلمة واحدة. أعتقد أنه أُعجِب بها، لكن انتهى كل شيء الآن. أفضل شيء يمكننا فعله لها.. أفضل وألطف شيء بالنسبة إليها.. وأنا أعرف أنك تحبينها يا بيتّي..»

«لقد حضنتها بين ذراعي. وأعطيت أخاها الصغير آخر لقمة له من الطعام الدنيوي». قالت بيتّي ذلك وهي ترفع مئزرها على عينيها.

«حسناً. لا تدعينا نُظهر لها أننا نُخمن أنها حزينة، فذلك سيجعلها تتغلب على الأمر بسرعة أكبر. أبوها وأمها لا يشُكان في الأمر، وعلينا أن نتظاهر بأننا لا نشُك في ذلك. لقد أصبح الوقت متأخراً الآن على فعل أي شيء آخر».

«لن أفعل أبداً. لن أُفشِي السر. أنا لا أعرف شيئاً. لقد جربت أنا نفسي الحب الحقيقي، عندما كنتُ شابّة. ولكنني أتمنى لو أنه

رحل بعيداً قبل أن يقترب من هذا المنزل، مع قوله 'هذا من فضلك يا بيتّي'، و'ذاك من فضلك يا بيتّي'، ويقوم بشرب حليبنا الطازج كما لو كان قطة. إنني أمقت أساليب الخداع هذه».

فكرت أنه من الأفضل أيضاً تركها تستنفد طاقتها في شتم هولدزورث الغائب. وإذا كان في ذلك خساسة وخيانة مني، فعليَّ أن أتحمّل عقابي بشكل مباشر.

«إنه لأمر مذهل كيف يمارس المرء الخداع. إن بعض الرجال يفعلون ذلك بسهولة وبراءة مثل الحمام الذي يصدر صوت هديل. لا تكن واحداً منهم أيها الفتى. ليس لأنك تمتلك الموهبة لفعل ذلك، ولا لأنك باهر الجمال في مظهرك، لا في جسمك ولا في وجهك، ولا بد أن يكون المرء أصمَّ تماماً حتى ينخدع بكلماتك، على الرغم من أنه قد لا يكون فيها أذى كبير». لا يُشبع غرورَ شاب في التاسعة عشرة من عمره سماع مثل هذا الرأي الصريح حتى من أكبر النساء وأبشعهن. ولكنني كنتُ سعيداً جداً بتغيير الموضوع من خلال تكرار توصياتي بالمحافظة على سرّ فيليس في طيّ الكتمان. وكانت نهاية محادثتنا خطابها هذا:

«أنت أيها الغبي الأخرق، من أجل جميع الذين يطلقون عليك لقب ابن خال القسيس، كثير منهم مصابون بلعنة الخلط بين الحمقى وأبناء الخال، هل تعتقد أنني لا أستطيع رؤية ما هو معقول إلا من خلال نظارتك؟ إنني أعطيك الإذن بقطع لساني، وتثبيته بمسامير في باب الحظيرة لإخافة طيور العقعق، إذا نطقت كلمة واحدة بشأن تلك الفتاة المسكينة، سواء لها أو لأي شخص له علاقة

بها، كما يقول الكتاب المقدس. ربما ستقتنع الآن، بعد أن سمعت كلامي بلغة الكتاب المقدس، وتتركني وحدي في مطبخي».

طوال كل تلك الأيام، من الخامس من تموز/ يوليو وحتى السابع عشر من تموز/ يوليو، لا بد أنني كنتُ قد نسيت ما قاله هولدزورث بشأن البطاقات. ومع ذلك، فلا يمكنني أن أكون قد نسيت تماماً. إلا أنني، بمجرد أن أخبرت فيليس بشان زواجه، لا بد أن أكون قد نظرتُ إلى النتائج المترتبة على البطاقات بوصفها غير ذات أهمية. على أي حال، فقد وصلتْ إليَّ أخيراً كمفاجأة. إن إصلاح نظام بريد البينس، كما يُسميه الناس، قد دخل حيز التنفيذ قبل وقت قصير، لكن سيل المذكرات والرسائل الذي لا ينتهي أبداً، والذي يبدو أنه يتدفق الآن على معظم العائلات، لم يكن قد بدأ جريانه بعد، على الأقل في تلك الأجزاء النائية. لقد كان هناك مكتب بريد في هورنباي، وكان هناك شخص كبير في السن يقوم بدس الرسائل القليلة في بعض جيوبه، أو جميعها، كما يناسبه، هو ساعي البريد الذي يوصل الرسائل إلى هيثبريدج والمناطق المجاورة لها. كنت ألتقي به في كثير من الأحيان في الممرات القريبة من هناك، وأسأله عن الرسائل. وكنت في بعض الأحيان، آتي إليه وهو جالس يستريح على ركام الحاجز، ويتوسل إليَّ لكي أقرأ له عنواناً غير مقروء بالنسبة إلى عينيه اللتين يضع عليهما نظّارات، وعندما كنتُ أستفسر عمّا إذا كان لديه أي شيء مُرسل إليّ، أو إلى هولدزورث (لم يكن دقيقاً بشأن لمن يُعطي الرسائل، حيث كان يتخلص منها بطريقة ما ليستطيع العودة نحو المنزل). وكان يقول إنه يظن أن لديه رسائل، حيث كانت تلك هي صيغته الآمنة في الرد، وكان يتلمس

في الجيوب التي عند صدره، وجيوب صُدرَته، وجيوب سرواله القصير، وفي الملاذ الأخير، في جيوب سترته الخطافية. وبعد مرور وقت طويل يحاول مواساتي إن بدَوت خائب الأمل من خلال قوله لي، 'هوو قد فوَّتَ الأمر هذه المرة، ولكن من المؤكد أنه سيكتب غداً'. و«هوو» يُمثل حبيباً وهمياً.

في بعض الأحيان، رأيت القسيس يُحضر إلى المنزل رسالة وَجَدَها في انتظاره عند المتجر الصغير، الذي كان مكتب البريد في هيثبريدج، أو من المؤسسة الأكبر في هورنباي. وفي بضع مرات كان جوسايا، وهو سائق عربة النقل، يتذكر أن ساعي البريد المسنّ قد أوكله بإيصال رسالة إنجيلية إلى 'السيد' عندما التقيا في أحد الممرات. أظن أن ذلك قد حدث بعد حوالى عشرة أيام من وصولي إلى المزرعة وحديثي مع فيليس التي كانت تقطع الزبدة والخبز عند خزانة أدوات المطبخ، فكان اليوم الذي تحدث فيه القسيس فجأة على طاولة المطبخ، وقال:

«بالمناسبة، لدي رسالة في جيبي. أحضري لي معطفي يا فيليس». كان الطقس ما يزال قائظاً، وكان القسيس جالساً بقميصه دون سترة. «ذهبتُ إلى هيثبريدج بشأن الورق الذي أرسلوه إليّ، والذي يُفسد كل الأقلام. وقمت بزيارة مكتب البريد، ووجدت رسالة مُرسلة إليّ، غير مدفوعة الأجر، ولم يريدوا الاعتماد على زاكيل العجوز بتوصيلها. هيه! ها هي ذي! والآن سوف نسمع جميعنا أخبار هولدزورث. فكرتُ في الاحتفاظ بها حتى نكون جميعنا مجتمعين معاً». بدا أن قلبي توقف عن النبض، وتركتُ رأسي يتدلى فوق صحني، وأنا لا أجرؤ على رفع نظري. ما الذي سينجم

عن ذلك الآن؟ ما الذي كانت فيليس تفعله؟ وكيف كانت تبدو؟ برهة من الترقب، ثم تكلم مرة أخرى. قال، «ياه! ما هذا؟ إنهما بطاقتا دعوة واسمه عليهما، ليس هناك أي كتابة على الإطلاق. لا! ليس اسمه هو المكتوب على كلتيهما. السيدة هولدزورث! لقد رحل الشاب وتزوج». رفعتُ رأسي مع هذه الكلمات. لم يكن في وسعي أن لا أنظر إلى فيليس. لقد بدا لي أنها كانت تراقب وجهي وتصرفاتي. كان وجهها متورداً بتوهج. وكانت عيناها جافتين ومتلألئتين. ولكنها لم تتكلم. كانت شفتاها ملتصقتين، كما لو أنها كانت تضغطهما بإحكام لمنع الكلمات أو الأصوات من الخروج. وكانت تعابير وجه ابنة الخال هولمان تنم عن مفاجأة واهتمام.

قالت، «حسناً! من كان يظن حدوث ذلك الأمر! لقد قام بعمل سريع في التودد والزفاف. أتمنى له السعادة بكل تأكيد، دعني أرى» وأخذت تعدّ على أصابعها، «تشرين الأول/ أكتوبر، تشرين الثاني/ نوفمبر، كانون الأول/ ديسمبر، كانون الثاني/ يناير، شباط/ فبراير، آذار/ مارس، نيسان/ إبريل، أيار/ مايو، حزيران/ يونيو، تموز/ يوليو، ونحن في الثامن والعشرين على الأقل، لقد مرّ حوالى عشرة أشهر على الرغم من كل شيء، وأقدِّر شهراً له في كل وجهة..»

«هل كنتَ على علم بهذا الخبر من قبل؟» قال القسيس ذلك مستديراً نحوي استدارة حادة، إذ إنه كان متفاجئاً من صمتي، حسب ظني، دون أن أبدي أي ارتياب حتى الآن.

قلتُ، «أعرف، سبق أن سمعت شيئاً ما. إنها امرأة كندية من أصل فرنسي». ثمّ تابعتُ مُجبراً نفسي على الكلام، «اسمها فينتادور».

قالت فيليس بصوت حاد، مضطرب، «لوسيل فينتادور!»

هتف القسيس، «إذن أنت تعلمين أيضاً!» تحدثنا كلانا معاً، فقلتُ، «سمعت باحتمالية ذلك الأمر وأبلغتُ فيليس». وقالت هي، «إنه متزوج من لوسيل فينتادور، من أصل فرنسي. وهي من أسرة كبيرة قرب سانت موريس. هل أنا على صواب؟» أومأتُ برأسي، فتابعتْ، «أخبرني بول، ذلك كل ما نعرفه، أليس كذلك؟ هل رأيت أسرة هاوسون في هيثبريدج يا أبي؟» أجبرتْ نفسها على الكلام أكثر مما تكلمت في عدة أيام، فطرحت أسئلة كثيرة محاولةً، بقدر ما استطعت أن أرى، إبقاء المحادثة بعيداً عن الموضوع الحساس، الذي كان التطرق إليه يُسبب شعوراً بالأسى. كنت أتمتع بقدر أقل من ضبط النفس، لكنني حذوت حذوها. لم أكن مستغرقاً كثيراً في المحادثة، إلا أنني استطعت معرفة أن القسيس كان في حيرة ومضطرباً. وعلى الرغم من ذلك فقد دعم جهود ابنته، في منع أمها من تكرار الرجوع إلى ذلك الخبر القاسي، والتلفظ بهتافات مستمرة تنم عن الاستغراب والمفاجأة. ولكن مع ذلك الاستثناء الوحيد، كنا جميعنا قد وقعنا في اضطراب أَخرَجَنا عن اتزاننا الطبيعي بدرجات متفاوتة. لقد كنت في كل يوم وفي كل ساعة ألوم نفسي أكثر فأكثر على تدخلي الأحمق. لو أنني أمسكت لساني الغبي نصف الساعة تلك فحسب. لو أنني فقط لم أكن بمثل ذلك التسرع المفتقر إلى الصبر لعمل شيء ما، لكي أخفف الألم! كان من الممكن أن أضرب رأسي الغبي بالجدار من شدة ندمي. ومع ذلك، فكل ما كنت قادراً على فعله هو مناصرة الفتاة الشجاعة في جهودها لإخفاء خيبة رجائها وكتم سرها العذري. ولكنني ظننت أن ذلك الغداء لن ينتهي أبداً، أبداً.

لقد عانيت من أجلها، حتى أكثر من معاناتي من أجل نفسي. وحتى هذه اللحظة، كان كل حديث سمعته في ذلك المنزل السعيد هو كلمات بسيطة ذات معنى صادق. إذا كان هناك أي شيء سيئ لقوله، فإننا كنا نقوله. وإذا فضل أي واحد الصمت، بل إن فعل الجميع ذلك، فلن يكون هناك أي جهود قسرية مُتَصَنَّعة للتحدث من أجل التحدث، أو لتحاشي الأفكار الفضولية أو الشكوك.

بعد وقت طويل، نهضنا من أماكننا، وتهيأنا للتفرق. ولكن كان بعضنا قد فقد الحماس والاهتمام بالعمل اليومي. فقد وقف القسيس ينظر من النافذة إلى الخارج في صمت، وعندما حفّز نفسه إلى الخروج للحقول حيث كان عماله يعملون، فإنه فعل ذلك مع تنهيدة، وحاول أن يُشيح بوجهه المضطرب في أثناء مروره بنا مُتجهاً نحو الباب. وعندما غادَرَنا، وقع نظري على وجه فيليس التي كانت تظن أن لا أحد يلاحظها، فاسترخت ملامحها بضع لحظات في إعياء كئيب حزين. وفجأة تنبهتْ وعادت إلى النشاط مرة أخرى عندما تكلمت أمها، وابتعدت متعجلة للقيام بمهمة صغيرة رداً على أمر من أمها. وعندما أصبحنا نحن الاثنين وحدنا، عادت ابنة الخال هولمان إلى موضوع زواج هولدزورث. لقد كانت من أولئك الناس الذين يُحبون مُعاينة كل حدث من كل جوانبه المحتملة، أو حتى الممكنة، ولم يُسمح لها بإطلاق العِنان لنفسها بهذه الطريقة في أثناء الغداء.

«التفكير في كون السيد هولدزورث متزوج! لا أستطيع تقبل الأمر يا بول. لقد كان شابّاً لطيفاً جداً! إلا أن اسمها لا يُعجبني. إنه يبدو اسماً أجنبيّاً. قُلهُ مرة أخرى يا عزيزي. أرجو أن تعرف تلك الفتاة كيف تعتني به بالطريقة الإنجليزية. إنه غير قوي، وإن لم يفعل

ما يلزم لكي تكون أشياؤه جيدة التهوية، فإنني أخشى أن يعاوده السعال القديم».

«كان يقول دائماً إنه أقوى مما كان عليه في أي وقت سابق، بعد تلك الحمى. قد يظن ذلك، ولكن لدي شكوكي. لقد كان شاباً دمثاً جداً، لكنه لم يتحمل الرعاية بشكل جيد جداً. لقد سئم من الدلال، كما كان يُسميه. أتمنى أن يعودا إلى إنجلترا عمّا قريب، وعندئذ ستكون لديه فرصة للمحافظة على صحته. أتساءل الآن ما إذا كانت عروسه تستطيع تكلم اللغة الإنجليزية. ولكنه، بلا ريب، يستطيع التحدث بلغات أجنبية بكل سهولة، كما سمعت القسيس يقول». وبقينا على هذا الحال بعضَ الوقت، إلى أن غلبها النعاس فوق حياكتها، في فترة بعد الظهر من اليوم الصيفي الحارّ والرطب، فتسللتُ مبتعداً لكي أتمشى، ذلك أنني أردت بعض العزلة لأتأمل فيها بعض الأمور، وكذلك، واحسرتاه! لكي ألوم نفسي بطعنات حادة من تأنيب الضمير.

بمجرد وصولي إلى الحَرْج مشيت بتسكع متكاسل. وكان الجدول الصاخب الجياش، هنا وهناك، يدور حول صخرة كبيرة أو جذر شجرة مُعَمَّرَة، ويكوِّن بركة. وفيما عدا ذلك، كان يجري فوق الحصى والحجارة. وقفتُ قرب واحدة من هذه البِرك أكثر من نصف ساعة، أو، في الواقع، مدة أطول، وأنا أُلقي قطعاً صغيرة من الخشب أو الحصى في الماء، وأتساءل عمّا أستطيع فعله لكي أُصلح الوضع الحالي للأمور. ومن غير ريب كان تأملي كله بلا فائدة. وبعد مرور وقت طويل، سمعت صوت البوق المُستخدَم لإخبار الرجال العاملين بعيداً في الحقول بالتوقف عن العمل، وهذا نبّهني إلى أن

الساعة قد أصبحت السادسة وحان وقت الذهاب إلى المنزل. ثم سمعت أصواتاً مرتفعة تُغني ترنيمة المساء. وفي أثناء عبوري لحقل أشجار الدردار، رأيت القسيس على مسافة بعيدة يتحدث مع رجل. لم أستطع سماع ما كانا يقولانه، لكنني رأيت إيماءة تنمُّ عن نفاد صبر أو معارضة (لم أستطع تحديد أيهما) من جهة الأول، الذي مشى بسرعة مبتعداً وبدا مُستغرقاً في أفكاره، إذ على الرغم من مروره ضمن مسافة عشرين ياردة مني، حيث كان مسارانا يتلاقيان تجاه المنزل، إلا أنه لم ينتبه لي. قضينا المساء بطريقة كانت أسوأ من وقت الغداء. وكان القسيس صامتاً ومكتئباً بل عصبيّاً. وكانت ابنة الخال هولمان المسكينة في حيرة تامة من هذه النفسية ومن هذا المزاج غير العادي لزوجها. لم تكن في حالة جيدة هي نفسها، وكانت تعاني من الحرارة الشديدة والجو الخانق ما جعلها أقل كلاماً من العادة. وفيليس، التي تكون عادة لطيفة جداً بشكل يتسم بالتبجيل في تعاملها مع والديها ورقيقة جداً ومحترمة جداً، بدت الآن غير منتبهة لحالة الأمور غير العادية، بل تحدّثت إليّ، وإلى غيري، في مواضيع متنوعة غير آبهة بجدِّيَّة والدها، وبنظرات أمها الحائرة والمثيرة للشفقة. ولكن وقعت عيناي فجأة على يديها المخفيتين تحت الطاولة، واستطعت رؤية الطريقة الانفعالية المضطربة التي كانت تشبك بها أصابع يديها وتُداخِلها بلا انقطاع، وتضغطها معاً من وقت لآخر، فكانت تضغطها إلى أن يُصبح اللحم المضغوط أبيض اللون تماماً. ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ لقد تحدثت معها عندما رأيت أنها كانت ترغب في ذلك. لقد كان هناك دوائر داكنة حول عينيها الرماديتين وفيهما نوع غريب من الضوء القاتم. كانت وجنتاها متوردتين، ولكن شفتيها كانتا بلون أبيض وباهت. كنت متعجّباً من أن الآخرين لم

يلحظوا هذه العلامات بالوضوح الذي لاحظتها أنا فيها. ولكن ربما أنهم لاحظوها، وأعتقد، مما جرى فيما بعد، أن القسيس كان قد لاحظها. مسكينة ابنة الخال هولمان! لقد كانت تُبجّل زوجها، وكانت العلامات الظاهرية لاضطرابه واضحة بالنسبة إلى قلبها البسيط أكثر مما كانت بالنسبة إلى قلب ابنتها. وبعد برهة لم تستطع تحمل الأمر أكثر من ذلك، فنهضت وقالت، في أثناء وضعها يدها على كتف زوجها العريض المقوس:

«ما الخطب أيها القسيس؟ هل هناك أي مكروه؟»

فزع كما لو أنه استيقظ من حلم. طأطأت فيليس رأسها، وحبست نفسها في رعب من الرد الذي كانت تخشاه. ولكنه نظر حوله في نظرة شاملة، وأدار وجهه العريض الحكيم نحو زوجته القلقة، وابتسم ابتسامة مصطنعة، وأخذ يدها بطريقة مُطمْئنة.

«إنني ألوم نفسي يا عزيزتي. لقد استبدّ بي الغضب بعد ظهر هذا اليوم. بصعوبة عرفتُ ما الذي كنت أفعله، ولكنني طردت تيموثي كوبر. لقد قتل شجرة تفاح «ريبستون بيبن» القائمة في زاوية البستان، فقد ذهب وكوَّم الجير الحي، المُخصص لصنع الملاط لجدار الإسطبل الجديد، على جذع الشجرة... شخص غبي! لقد قتل الشجرة فوراً... وكانت مليئة بالتفاح!»

قالت ابنة الخال هولمان في تعاطف، «وتفاح «ريبستون بيبن» نادر جداً».

قال، «هيه! لكن تيموثي ليس سوى رجل يفتقر إلى الفطنة، ولديه زوجة وأطفال. لقد كان يتسبب بإزعاجي في كثير من الأحيان

ببلادته، لكنني كنت أوكل أمري إلى الرب، وبذلتُ ما في وسعي لتحمله. ولكنني لن أتحمل أكثر من ذلك، لقد تجاوز الأمر صبري. وقد طلبتُ منه أن يبحث له عن مكان آخر. لن نتحدث بهذا الأمر أكثر من ذلك يا زوجتي». رفع يدها عن كتفه بلطف، ولمسها بشفتيه، لكنه عاد إلى صمت عميق كالذي كان فيه من قبل، وإن لم يكن بالكآبة ذاتها تماماً ظاهرياً. لم أستطع معرفة لماذا، لكن يبدو أن هذا الحديث بين أبيها وأمها قد أبعد كل الأمزجة المصطنعة عن فيليس. لم تتكلم الآن، لكنها نظرت خارج النافذة المفتوحة إلى القمر الكبير الهادئ، وهو يتحرك ببطء خلال سماء الغسق. ظننت أوّل وهلة أن عينيها مغرورقتان بالدموع. ولكن إن كان الأمر كذلك، فقد تخلصتِ من دموعها، ونهضتْ في نشاط مبتهج عندما اقترحت أمها، المنهكة والمكتئبة، الذهاب إلى الفراش مباشرة بعد الصلاة. عبّرنا جميعنا عن تمنياتنا بليلة سعيدة للقسيس، الذي بقي جالساً عند الطاولة والكتاب المقدس الكبير مفتوح أمامه، لم يرفع نظره نحو أي من تحياتنا، لكنه ردها بلطف. كنتُ آخر المغادرين، وعندما كنتُ أوشك أن أخرج من الغرفة، قال وهو يرفع نظره بصعوبة:

«تكرّم عليَّ يا بول بالبقاء بضع دقائق أخرى. أرغب في التحدث معك قليلاً».

عرفتُ ماذا سيأتي فوراً. أغلقتُ الباب بحرص، وأطفأتُ شمعتي، وجلستُ منتظراً مصيري بمفردي. بدا أنه يجد صعوبة في البدء، فلو لم أسمع أنه يريد التحدث معي، لما خمنتُ مُطلقاً أنه يريد ذلك. بدا مُستغرقاً جداً في قراءة فصلٍ حتى النهاية. وفجأة، رفع رأسه وقال:

«إنه بخصوص صديقك ذاك، هولدزورث! هل لديك يا بول أي سبب للاعتقاد بأنه خدع فيليس؟» رأيت عينيه متأججتين بنار الغضب من مجرد الفكرة، إلى درجة أنني فقدت حضور بديهتي كله، فكررت فقط:

«خدع فيليس؟»

«هيه! أنت تعرف ماذا أقصد: جعلها تتعلق به، تودد إليها، جعلها تفكر أنه يُحبها، ثم رحل وتركها. عبِّر عن الأمر كما تشاء، أعطني، فحسب، إجابة بطريقة أو بأخرى. أعني إجابة حقيقية يا بول، ولا تكرر كلماتي».

كان ينتفض من رأسه حتى أخمص قدميه في أثناء كلامه هذا. لم أتاخر دقيقة في الرد عليه:

«لا أعتقد أن إدوارد هولدزورث قد خدع فيليس على الإطلاق، أو جعلها تتعلق به. كما أنه، على حدّ علمي، لم يجعلها أبداً تعتقد أنه يُحبها».

توقفتُ قليلاً. أردت استجماع شجاعتي لكي أعترف، ومع ذلك تمنيت كتم سر حب فيليس لهولدزورث قدر استطاعتي. ذلك السر الذي سعت هي جاهدة إلى إبقائه مقدَّساً وآمناً. وكنت في حاجة إلى بعض التفكير قبل الاستمرار بما كان عليَّ قوله.

بدأ مرة أخرى قبل أن أكون قد رتبتُ طريقة كلامي تماماً. وقال كما لو أنه كان يُحدث نفسه، «إنها طفلتي الوحيدة. ابنتي الصغيرة! لقد تجاوزتْ مرحلة الطفولة توّاً. فكرتُ في ضمها تحت جناحي

سنواتٍ قادمة فنتخلى، أنا وأمها، عن حياتنا لنبعِدَ عنها الأذى والحزن». ثمّ رفع صوته ونظر إليَّ قائلاً، «لقد حدث مكروه لابنتي، ويبدو لي أن ذلك بدأ من وقت سماعها بذلك الزواج. يشُقّ عليَّ التفكير في أنك ربما تعرف من همومها وأحزانها السرّية أكثر مما أعرف أنا، لكنك ربما تعرف، ربما تعرف يا بول. أخبرني فقط ماذا أستطيع أن أفعل لجعلها سعيدة مرة أخرى، إن لم يكن في ذلك خطيئة».

قلتُ، «أخشى أنه ما من فائدة تُرجى من ذلك. ولكنني سوف أُعرب عن مسؤوليتي عن مدى الأذى الذي تسببتُ به. لا أقصد أذى على شكل خطيئة، لكن على سبيل التقدير. أخبرني هولدزورث مباشرة قبيل رحيله إنه أحب فيليس، وكان يأمل أن يجعلها زوجة له، وأنا أخبرتها بذلك».

ها هو ذا! لقد كُشف الأمر وكل دوري فيه، على أقل تقدير. ضممتُ شفتيَّ بإحكام بانتظار الكلمات التالية. لم أرَ وجهه. نظرتُ مباشرة إلى الجدار المقابل، لكنني سمعته فجأة يبدأ بالكلام، ثمّ يقوم بقلب صفحات الكتاب المفتوح أمامه. كم كان الهدوء في تلك الغرفة فظيعاً. ونظرتُ إلى الهواء في الخارج، كم كان ساكناً! ولم تُدخِل النوافذ المفتوحة صوت حفيف أوراق الأشجار ولا تغريد طيور أو حركتها، لم يكن هناك أي صوت على الإطلاق. كان هناك صوت الساعة على الدرج وصوت تنفس القسيس المرتفع. هل سيستمر الأمر إلى الأبد؟ جزعتُ من الهدوء العميق إلى حد لا يُحتمل، فتكلمتُ مرة أخرى:

«لقد فعلتُ ذلك على أنه الأفضل لمصلحتها، كما كنتُ أعتقد».

أغلق القسيس الكتاب بتهور، ووقف. ثمّ رأيتُ كم كان غاضباً.

«قُلتَ الأفضل لمصلحتها؟ لقد كان الأفضل، أليس كذلك، أن تذهب وتُخبر فتاة صغيرة بما لم تقل كلمة واحدة منه لوالديها اللذين وثقا بك مثل ابن لهما؟»

وبدأ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً بالقرب من النوافذ المفتوحة وهو يَمخَضُ أفكاره المريرة بشأني.

واصل القسيس، «إدخال مثل هذه الأفكار في رأس طفلة وإفساد عذريتها الهادئة بحديثٍ بحبّ رجل آخر، وحب مثل هذا، أيضاً». كان يتحدث بازدراء الآن، «حب جاهز لأي امرأة شابة. أوه، البؤس في وجه ابنتي الصغيرة المسكينة اليوم عند الغداء.. البؤس يا بول! اعتقدت أنك شخص يمكن الوثوق به، ابن مثل أبيك أيضاً. أن تقوم بإدخال مثل تلك الأفكار في عقل الطفلة. أنتما الاثنان تتحدثان معاً بشأن ذلك الرجل ورغبته في الزواج بها».

لم أستطع منع نفسي من عدم تذكر المريلة، بل الثوب الطفولي الذي ارتدته فيليس فترة طويلة، كما لو أن والديها كانا غير مدركين لنموها نحو الأنوثة. كان القسيس يتحدث بشأنها ويفكر فيها بالطريقة ذاتها تماماً الآن، كطفلة أفسدتُ هدوؤها البريء من خلال كلام أحمق فارغ. كنتُ أعرف أن الحقيقة كانت مختلفة، على الرغم من أنني كنت غير قادر على أن أقولها الآن. ولكنني، في الواقع، لم أفكر قَطُّ في محاولة قولها. لقد كان بعيداً عن ذهني إضافة ذرة واحدة إلى الحزن الذي تسببتُ به. استمر القسيس بالمشي، متوقفاً بين الفينة

والأخرى لتحريك أشياء على الطاولة أو قطع من الأثاث، بطريقة غير هادفة وضجرة وعنيفة، ثم بدأ يتكلم مرة أخرى:

«صغيرة جداً، ومحصَّنة جداً من العالم! كيف استطعت الذهاب والتحدث إلى طفلة كهذه، باعثاً آمالاً ومثيراً لمشاعر، لينتهي كل شيء هكذا. وتعتقد أن ذلك أفضل لمصلحتها مع أنني رأيت وجهها البائس المثير للشفقة يبدو كما بدا عليه. لا يمكنني ان أغفر لك يا بول. لقد كان أكثر من خطأ.. لقد كان فعلاً شريراً، أن تمضي وتكرر كلمات ذاك الرجل».

كان ظهره الآن إلى الباب، وفي أثناء إصغائه إلى نبراته الغاضبة الخفيضة، لم يسمع الباب يُفتح ببطء، ولم يرَ فيليس واقفة داخل الغرفة، إلى أن استدار، عندئذ وقف ساكناً بلا حراك. لا بد أنها كانت شبه عارية، لكنها كانت قد غطت نفسها بمعطف شتوي داكن انسدل في طيات طويلة فوق قدميها ناصعتي البياض العاريتين خافتتي الخطوات. وكان وجهها شاحباً على نحو غريب: وعيناها مرهقتان داخل الدائرتين السوداوين حولهما. جاءت إلى الطاولة ببطء شديد، وأسندت يدها إليها، قائلة بشكل حزين:

«أبي، ينبغي ألّا تلوم بول. لم يكن في وسعي عدم سماع الكثير مما كنت تقوله. لقد أخبرني، وربما كان من التعقّل أكثر ألا تفعل يا بول العزيز! ولكن، أوه، يا إلهي! يا إلهي! إنني أعاني من خزي شديد! لقد أخبرني انطلاقاً من طيبة قلبه، لأنه رأى أنني كنت تعيسة جداً لرحيله». طأطأت رأسها واتكأت بثقل أكبر من قبل على يدها التي كانت تستند إليها.

قال أبوها، «أنا لا أفهم». ولكنه كان قد بدأ يفهم. ولم ترد فيليس إلى أن سألها مرة أخرى. كان من الممكن أن أضربه الآن بسبب قسوته، لكنني عندئذ عرفت كل شيء.

قالت بعد مرور وقت طويل وهي ترفع عينيها نحو وجه القسيس، «لقد أحببته يا أبي!»

«هل حدَّثك بالحب في أي وقت؟ بول يقول إنه لم يفعل!»

قالت، «البتة». خفضت عينيها، وطأطأت أكثر من أي وقت مضى. وظننتُ أنها كانت ستقع، تقريباً.

قال في صوت قاسٍ، ومع ذلك تنهد في اللحظة التي تكلم فيها، «ما كنت لأتمكن من تصديق ذلك». كانت هناك برهة من الصمت المُطبق. ثمّ قال، «بول! كنتُ غير مُنصفٍ معك. كنتَ تستحق اللوم، ولكن ليس كلُّ ما قلتُه». ثمّ صمتٌ مرة أخرى. ظننت أنني رأيت شفتي فيليس تتحركان، لكن ربما كان ارتعاش ضوء الشمعة إذ إن عثة دخلت تطير من خلال النافذة البابية المفتوحة، وكانت ترفرف حول الشعلة. لقد كان من الممكن أن أنقذها، لكنني لم أهتم بفعل ذلك، فقد كان قلبي يعجّ بأمور أخرى. على أي حال، لم يُسمع أي صوت لدقائق سرمدية. ثمّ قال، «فيليس! ألم نجعلك سعيدة هنا؟ ألم نحبك بما فيه الكفاية؟»

بدا أنها لم تفهم مغزى هذا السؤال، فنظرت إلى الأعلى كما لو أنها كانت متحيّرة، وتوسعت عيناها الجميلتان في تعبير ينمّ عن شعور بعذاب مؤلم. تابع دون أن يلاحظ ملامح وجهها، إنه لم يرها، أنا متأكد من ذلك.

قال، «ومع ذلك كنتِ ستتركيننا، تتركين منزلك، تتركين والدك ووالدتك، وترحلين مع هذا الغريب، تجوبين العالم». لقد كان يعانى هو أيضاً. وكانت هناك نبرات من الألم في الصوت الذي نطق به هذا اللوم. ربما أن الأب والابنة لم يكونا قَطُّ بعيدين وغير متفاهمين إلى هذه الدرجة في حياتهما. بيد أن بأساً جديداً شديداً قد حل بها، فكان هو من لجأت إليه طلباً للمساعدة. لقد غطى ظلٌ وجهها، فترنحت نحو والدها وسقطت، وأسندِت ذراعيها إلى ركبتيه وهي تنتحب:

«أبي، رأسي! رأسي!» ثمّ انزلقت خلال ذراعيه اللتين عانقتاها بسرعة، واستلقت على الأرض عند قدميه.

لن أنسى ما حييت ملامح اللوعة التي علت محياه فجأة! أبداً. قمنا برفعها. كان لونها قد أصبح داكناً على نحو غريب، وكانت فاقدة للوعي. ركضتُ خلال باب المطبخ نحو مضخة الفناء، وجلبت لها الماء. كان القسيس قد وضعها على ركبتيه، ورأسها مستند إلى صدره كما لو كانت طفلة نائمة. كان يحاول النهوض مع حِمله النفيس البائس، لكن الذعر اللحظي كان قد سلب من الرجل القوي قوَّتَه، فغاص في كرسيه وأسند ظهره وهو يتنفس بنحيب.

همس بصوت أجش في أثناء اقترابي منه، «إنها ليست ميتة يا بول! أليس كذلك؟» أنا أيضاً كنتُ غير قادر على الكلام، لكنني أشرت إلى عضلات مرتعشة حول فمها. في تلك اللحظة بالضبط، نزلت ابنة الخال هولمان، حيث استدعاها صوت ما غريب. وأتذكر أنني كنت متفاجئاً في ذلك الوقت من حضور ذهنها، فقد بدا أنها

تعرف ما عليها أن تفعل أفضل من القسيس، في خضم الفزع المضطرب الذي جعل ملامحها تُصبح شاحبة، وجعلها ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها. أظن الآن أن ذلك كان تذكراً لما جرى من قبل. فكان الاعتقاد البائس بأن كلمات القسيس من الممكن أن تكون قد أدَّت إلى هذه النوبة، أياً كانت، هو الذي أفقد القسيس رباطة جأشه إلى تلك الدرجة. حملناها إلى الطابق العلوي، وفي أثناء قيام النساء بوضعها في الفراش وهي ما تزال فاقدة الوعي، وما تزال متشنجة قليلاً، خرجت مُنسلًّا، وقمتُ بتسريج أحد الأحصنة، وذهبت على ظهره بأسرع ما استطاع الحيوان ثقيل الخبب أن ينطلق، إلى هورنباي، من أجل العثور على الطبيب هناك، واصطحابه معي في عودتي. لقد كان في الخارج، ربما كان سيتأخر طوال الليل. «كن في عوننا جميعاً يا رب!» كنت أتذكر قول ذلك وأنا جالس على حصاني تحت النافذة التي ظهَرَ من خلالها رأس المتدرب ليرد على شدّي العنيف لحبل جرس الليل. لقد كان شخصاً لطيفاً، وقال:

«ربما يصل إلى المنزل في غضون نصف ساعة، لا أعرف بالتأكيد، لكن تلك هي توقعاتي. سوف أُرسله إلى مزرعة الأمل مباشرة عند وصوله. إنها تلك المرأة الشابة الجميلة، ابنة هولمان هي المريضة، أليس كذلك؟»

«نعم».

«سيكون أمراً مؤسفاً إذا ماتت. إنها مجرد طفلة، أليس كذلك؟ سوف أنهض وأُدخِّنُ غليوناً في غرفة الجراحة، متأهباً

لحضور المدير إلى المنزل إذ ربما أخلدُ إلى النوم إن ذهبتُ مرة أخرى إلى الفراش».

قلتُ، «شكراً لك، إنك شخص طيب!» ورجعتُ راكباً بالسرعة ذاتها التي أتيت بها. لقد كانت حُمّى دماغية، ذلك ما قاله الطبيب عندما جاء في وقت مبكر من صباح اليوم الصيفي. أعتقد أننا تعرفنا إلى طبيعة المرض في ساعات الليل التي مضت من قبل. أما بالنسبة إلى الأمل في الشفاء التام، أو حتى التوقع المشؤوم بالوفاة المحتملة، فالطبيب الحذر لم يقيد نفسه بأي منهما، وإنما أعطى توجيهاته، ووعد بالحضور مرة أخرى في وقت قريب جداً، إلى درجة أن رأيه الأخير هذا بيَّن خطورة الحالة.

تعافت برحمة الرب، لكن بعد أن مرَّ أولاً وقت مُرهق طويل. ووفقاً للخطط السابقة، كان يتعين عليَّ الذهاب إلى منزل والدي في بداية آب/ أغسطس. ولكن تم وضع كل هذا النوع من الأفكار جانباً الآن، دون قول كلمة واحدة. أعتقد حقّاً أن وجودي في منزل المزرعة كان ضروريّاً، وضروريّاً على وجه الخصوص بالنسبة إلى القسيس في هذا الوقت، وكان والدي آخر شخص في العالم يمكن أن يتوقع عودتي إلى منزلي في ظروف كهذه.

لقد كان حضوري في منزل المزرعة ضروريّاً في رأيي. وكل شخص (كنت أوشك أن أقول كل مخلوق، فكل حيوان غير ناطق بدا أنه يعرف فيليس ويُحبها) في أرجاء المكان مضى مهموماً وحزيناً كما لو كانت هناك سحابة تُغطي الشمس. لقد أدَّوْا جميعاً عملهم، فكل منهم كان يسعى جاهداً إلى تفادي إغراء التظاهر بالعمل عندما يكون مُراقباً فحسب، وذلك وفاءً للثقة التي وضعها القسيس فيهم.

ففي اليوم التالي لإصابة فيليس بالمرض، قام باستدعاء جميع الرجال العاملين في المزرعة إلى داخل الحظيرة الفارغة. وهناك، التمس منهم الصلاة من أجل ابنته الوحيدة. ثمّ، في ذلك الحين وفي ذلك المكان، أخبرهم بعدم قدرته على التفكير بشأن أي شيء آخر في هذا العالم سوى ابنته الصغيرة، المشرفة على الموت، وطلب منهم المضي قُدماً في عملهم اليومي بأفضل ما يستطيعون، دون توجيهات منه. لذا، كما قلتُ، فقد بذل هؤلاء الرجال المخلصون كل ما في وسعهم لأداء عملهم على أكمل وجه، لكنهم مشوا بتراخٍ ووجوه حزينة ومهمومة، قادمين واحداً تلو الآخر في الصباحات المعتمة لطرح أسئلة عن المحنة التي خيمت على المنزل، وتلقي الأخبار من بيتّي بهزات بطيئة من رأسها وتعبير يتسم بحزن التعاطف الثقيل. وكانت الأخبار تُصبح دائماً مُكئِبة أكثر بعد مرورها في ذهن بيتّي. ولكن كان أولئك المساكين غير مؤهلين للاعتماد عليهم في الرسائل السريعة، وهنا أصبحت خدماتي الهزيلة مفيدة. إذ كان عليَّ ذات مرة الذهاب بسرعة على ظهر الحصان إلى مزرعة السير ويليام بينتيك لكي ألتمس منه تزويدنا بالثلج، من مستودع الثلج الخاص به، من أجل وضعه على رأس فيليس. وفي مرة أخرى كان عليَّ الذهاب إلى إلثام، في القطار أو على الحصان أو بأي طريقة، والطلب من الطبيب هناك أن يأتي لاستشارته، فقد ظهرت أعراض جديدة اعتبرها السيد براون، من هورنباي، غير مواتية. وكنت أجلس ساعات كثيرة على كرسي النافذة، في منتصف المسافة على الدرج، قريباً من الساعة القديمة، أُصغي في سكون المنزل المؤثر إلى أصوات من غرفة المريضة. كنتُ والقسيس نلتقي في كثير من الأحيان، إلا أننا نادراً ما كنا

نتحدث معاً. لقد بدا مُسِنّاً جدّاً.. مُسِنّاً جدّاً! كان يتشارك الرعاية مع زوجته. وبدا أن القوة التي كانا بحاجة إليها قد مُنحت لكليهما في ذلك اليوم. لم يرغبا بحضور أي شخص آخر حول ابنتهما. وكانت كل مهمة تؤدّى لأجلها تعتبر مقدسة بالنسبة إليهما. وحتى بيتّي كانت لا تدخل إلى الغرفة إلا للضرورات القصوى. تارة رأيتُ فيليس من خلال الباب المفتوح، كان شعرها الذهبي الجميل قد تم قصه قبل ذلك بوقت طويل. وكان رأسها مُغطى بقطع قماش مبللة، تُحركه إلى الخلف وإلى الأمام على الوسادة بحركة دؤوب منهكة. وكانت عيناها السقيمتان مغلقتين، وكانت تحاول، بطريقتها القديمة المعتادة، أن تدندن لحن ترنيمة، لكنها كانت تقطعه بشكل دائم ليتحول إلى أنين من الألم. كانت أمها جالسة بقربها، بلا دموع، تُبدِّل قطع القماش على رأسها بعناية شديدة متأنية. لم أرَ القسيس في البداية، لكنه كان هناك في زاوية مظلمة، راكعاً على ركبتيه، ويداه متشابكتان معاً في صلاة انفعالية. ثمّ أُغلِق الباب ولم أعد أرى المزيد. ذات يوم كان مطلوباً، وكان عليَّ استدعاؤه حيث إن الأخ روبنسون وقسيساً آخر قد سمعا بمحنته فحضرا لرؤيته. أخبرته بذلك في همس على مصطبة الدرج، فانزعج على نحو غريب.

«سيطلبان مني أن أُفضي بسريرة نفسي. لا أستطيع فعل ذلك. ابقَ معي يا بول. إن نيتهما حسنة. ولكن فيما يتعلق بالعون الروحاني في وقت كهذا، إنه الرب فحسب، الرب فحسب هو الذي يستطيع أن يمنحه».

وهكذا ذهبتُ معه. كانا قسيسين من الجوار، وكلاهما أكبر سنّاً من إبينيزر هولمان، لكن من الواضح أنهما أدنى منه في التعليم

والمكانة الدنيوية. أظن أنهما نظرا إليّ كما لو أنني كنت متطفلاً، إلا أنني تذكرت كلمات القسيس فتشبثت بمكاني، وأخذت أحد كتب فيليس المسكينة (والذي لم أستطع قراءة كلمة واحدة منه) لكي يكون لدي انشغال ظاهري. وطُلب مني في الحال أن «أشارك في الصلاة»، فركعنا جميعنا على الأرض. كان الأخ روبنسون «في القيادة» ويقتبس إلى حد كبير من «سفر أيوب»، على ما أذكر. بدا أنه يعتبره نصَّه، إذا كانت النصوص تستخدم أصلاً للصلاة،

«ها أنت قد أرشَدْتَ كثِيرينَ، والآن إذ جاء عليك ضجرت، وإذ مسَّك ارْتَعْتَ». عندما نهضنا نحن الآخرين، استمر القسيس راكعاً بضع دقائق على ركبتيه. ثمّ نهض هو أيضاً، ووقف مواجهاً لنا برهة قبل أن نجلس جميعنا في اجتماع مغلق. وبعد فترة توقُّفٍ، قال روبنسون:

«نحن حزينون جداً لما ألمّ بك أيها الأخ هولمان، فمحنتك عظيمة. لكن يسرنا أن نُذكِّرك بأنك مثل نور موضوع على تلة. ورعايا الأبرشية ينظرون إليك بعيون يقظة. كنا نتحدث، أنا والأخ هودغسون، في أثناء قدومنا معاً بشأن الواجبين المطلوبين منك في هذه المحنة. وقد عقدنا العزم على حضك بشأن هاتين النقطتين. أولاً، مَنَحَكَ الرب الفرصة لتقديم مثال يُحتذى في الخضوع لمشيئته». انقبض السيد هولمان المسكين من هذه الكلمة. وكان بإمكاني تصوُّر كيف كان يرفض مثل هذه المواعظ الأخوية في أوقات كان يتمتع فيها بقدر أكبر من السعادة. ولكن الآن كان نظامه بأكمله قد تفكك، وبدا أن تعبير «الخضوع» يفترض مقدماً أن حالة البؤس المروعة في فقدان فيليس كانت أمراً حتميّاً. ولكن السيد روبنسون الطيب

الغبي واصل كلامه: «إننا نسمع من جميع الأطراف أنه ليس هناك أي أمل يُذكر في تعافي ابنتك. وربما يكون من الجيد أن نجعلك تتذكر «إبراهيم»، وكيف كان مستعداً لذبح ابنه الوحيد إذعاناً لأمر الرب. اقتدِ به أيها الأخ هولمان. فلنسمعك تقول، 'الرب أعطى والرب أخذ. تبارك اسم الرب'».

كانت هناك وقفة ترقب، وأعتقد يقيناً أن القسيس حاول الشعور بذلك، لكنه لم يستطع، لقد كان قلب اللحم قويّاً جدّاً. ولم يكن لديه قلب من حجر.

«سوف أقول ذلك لربي عندما يمنحني القوة، عندما يحين الوقت». قال ذلك أخيراً.

نظر الرجلان الآخران أحدهما إلى الآخر وهزّا رأسيهما. أعتقد أن الإحجام عن تقديم ردّ، كما كانا يتمنيان، لم يكن أمراً غير متوقع تماماً. تابع القسيس كلامه وقال، كما لو أنه كان يُحدث نفسه، «هناك دواء. منحني الرب قلباً كبيراً من أجل الأمل، ولن أتطلع إلى الأمام أبعد من الوقت الحاضر». ثمّ استدار أكثر نحوهما، وأضاف متحدثاً بصوت أعلى، «أَخَوَيَّ، سوف يقويني الرب عندما يحين الوقت، وعندما يكون مثل هذا الخضوع الذي تحدثتما عنه ضرورياً. وحتى ذلك الوقت لا أستطيع الشعور به، وما لا أستطيع الشعور به فلا يمكنني التعبير عنه باستخدام كلمات كما لو كانت سحراً». كان قد بدأ يشعر بالغضب، واستطعت رؤية ذلك. كان حريّاً بما قاله أن يجعلهما يغادران. ولكن بعد وقت قصير وبضع هزات من رأسه، بدأ روبنسون بالحديث مرة أخرى:

«ثانياً، نودّ أن نجعلك تستمع إلى صوت العصا، وأن تسأل نفسك بسبب أي خطايا نزلت هذه المحنة بك؟ ما إذا كنت قد تخليت أكثر من اللازم عن أشياء، مقابل العناية بمزرعتك وماشيتك؟ ما إذا كان التعلم الدنيوي هذا لم يدفعك إلى أفكار عبثية وإهمال لأمور الرب؟ ما إذا لم تجعل من ابنتك صنماً يُعبد؟»

هتف القسيس، «لا أستطيع الإجابة.. لن أجيب. أعترف بخطاياي لربي». ثمّ أضاف بتواضع، «ولكن إذا كانت الخطايا فاسقة (وهي كذلك في نظره) فإنني أتفق مع المسيح أن الآلام لا يرسلها الرب بغضب بوصفها عقوباتٍ على خطيئة».

سأل القسيس الثالث في نبرة استفسار مراعية لمشاعر الآخرين، «هل هذا أرثوذكسي أيها الأخ روبنسون؟»

على الرغم من تعليمات القسيس بألّا أتركه، فقد اعتقدتُ أن الأمور كانت تزداد خطورة بشكل كبير، بحيث إن تدخّلاً يسيراً من الأسرة قد يكون أكثر تحقيقاً للغرض من حضوري المستمر، فذهبت إلى المطبخ لكي أطلب مساعدة بيتّي.

قالت، «إنني لا أفهمهما! إنهما يأتيان دائماً في أوقات غير ملائمة. لديهما شهية جيدة جداً، ولن يفعلا أي شيء يمكن أن يخدم سيدنا ويخدمك ما دامت فتاتنا المسكينة قد أصيبت بالمرض. لديّ فقط بعض لحم البقر البارد في المنزل، لكنني سوف أعدّ بعض اللحم المملح مع البيض، وذلك سوف يشغلهما عن إزعاج القسيس. إنهما يصبحان أهدأ بكثير بعد تناول الطعام، ففي آخر مرة أتى فيها روبنسون العجوز، كان مستهجناً جداً بشأن تعلم سيدنا الذي لم

يستطع أن يستوعبه تماماً، على الرغم مما بذله من جهد، لذا فلم يكن بحاجة لأن يكون خائفاً من الاستمالة، واستَخْدَمَ كلمات كبيرة بما فيه الكفاية لكي تطرح شخصاً أرضاً. ولكن بعد أن قمتُ أنا والزوجة بإعطائه من الزاد ما يُشبعه، وحصل على بعض شراب الجعة اللذيذ وعلى غليون، فقد تحدث تماماً كما يتحدث أي رجل آخر، واستطاع أن يحكي لي طرفة».

كانت زيارتهما هي الاستراحة الوحيدة في الأيام والليالي الطويلة المنهِكة. لا أقصد أنه لم تكن هناك استفسارات أخرى، بل أعتقد أن جميع الجيران كانوا يحومون حول المكان يومياً لكي يستطيعوا أن يعرفوا من أحد الخارجين كيف كان حال فيليس هولمان. ولكنهم كانوا أعقل من أن يأتوا إلى المنزل، إذ إن طقس شهر آب/ أغسطس كان شديد الحرارة بحيث كان كل باب مفتوحاً باستمرار وكذلك كل نافذة، وكان أقل صوت في الخارج يتغلغل في كل مكان. إنني متأكد من أن الديوك والدجاجات قد مرّت كلها بفترة حزينة بسبب ذلك الأمر. فقد قادتهنّ بيتّي جميعهنّ إلى داخل حظيرة فارغة، وأبقتهنّ داخلها في الظلام مُغلقة إياها عليهن بإحكام لعدة أيام، ما جعل تأثير صياح الديكة وقوقوة الدجاجات ضئيلاً جداً. وبعد مرور وقت طويل، جاء النوم الذي سبّب البُحران (تغيُّر مفاجئ نحو الأفضل أو نحو الأسوأ في الأمراض الحُمّيّة الحادة)، فقد استيقظتْ منه بحياة واهنة جديدة. كان سباتها قد استمر ساعات عديدة، كثيرة، ولم نكن نجرؤ على التنفس أو التحرك في أثناء ذلك الوقت. وجاهدنا طويلاً لنبقى على الأمل بشفائها حيث إن الأسى كان يحز في قلوبنا ولم نجرؤ على الوثوق بالعلامات الإيجابية: التنفس

المنتظم، والجِلد الرطب، والعودة الطفيفة للون اللطيف إلى الشفتين المصفرتين الشاحبتين. أذكر أنني خرجت مُنسلًّا ذلك المساء في وقت الغسق، وتجولت على طول الممر المكسو بالعشب، تحت ظل أشجار الدردار التي كانت تشكل فوقي قوساً، إلى الجسر الصغير عند سفح التل، حيث يلتقي الممر المُفضي إلى مزرعة الأمل مع طريق آخر يؤدي إلى هورنباي. وعند الدرابزين المنخفض لذلك الجسر وجدتُ تيموثي كوبر، ذاك العامل الغبي الأبله، جالساً بكسل يرمي قطعاً من الملاط في الجدول تحته. قام برفع نظره نحوي فحسب عندما اقتربت منه، ولم يقدم لي التحية لا بكلمة ولا بإيماءة. كان عادة يومئ بإشارة تدل على تعرفه إليّ، لكن أعتقد أنه في هذه المرة كان غاضباً بسبب طرده من العمل. وعلى الرغم من ذلك شعرت بأنه ستكون هناك راحة في الحديث قليلاً مع شخص ما، فجلست بقربه. وبينما كنتُ أفكر كيف أبدأ الحديث، تثاءب بإرهاق.

قلتُ، «هل أنت مُرهَق يا تيم؟»

قال، «نعم! لكن أعتقد أنني سأذهب إلى المنزل الآن». قلتُ، «هل أنت جالس هنا منذ فترة طويلة؟»

«طوال النهار. على الأقل منذ السابعة صباحاً». قلتُ، «لماذا، ماذا كنت تفعل؟» قال، «لا شيء».

قلتُ، «لماذا كنت جالساً هنا، إذن؟»

«لكي أُبقي العربات بعيدةً». كان الآن قد نهض، يمطط نفسه ويهزُّ أطرافه الخرقاء.

قلتُ، «عربات! أي عربات؟»

«العربات التي يُمكن أن توقِظ الفتاة هناك! إنه يوم سوق هورنباي. أعتقد أنك أعقل من ذلك وأنك لست أبله». أمال عينيه نحوي كما لو كان يقيس قدرتي على الفهم.

قلتُ، «وبقيتَ جالساً هنا طوال النهار لكي تُبقي الممر هادئاً؟»

قال، «نعم. ليس لدي أي عمل آخر أقوم به. لقد طردني القسيس، فجعلني أهيم على غير هدى. هل سمعت كيف تسير أمور الفتاة الليلة؟»

قلتُ، «إنهم يأملون أن تستيقظ في حال أفضل بعد هذا النوم الطويل. أتمنى لك ليلة طيبة، وليباركك الرب يا تيموثي».

لم يُبدِ أي اهتمام يُذكر بكلماتي في أثناء سَيْرِه بتثاقل خلال مَرقى درَجي يُفضي إلى كوخه. ذهبتُ في الحال إلى المنزل في المزرعة. كانت فيليس قد تحركت ونطقت بضع كلمات خافتة. كانت أمها معها، تُسقِطُ غذاءً في فمها المتنبّه بصعوبة. وكان بقية من في المنزل قد استدعوا لصلاة المساء أول مرة منذ أيام عديدة. لقد كانت عودة إلى عادات السعادة والصحة اليومية. ولكن في هذه الأيام الصامتة، كانت حياتنا صلاة غير جهرية. كنا الآن مجتمعين في غرفة الأسرة، وينظر بعضنا إلى بعض مع اعتراف غريب بالامتنان يبدو في وجوهنا جميعنا. ركعنا على الأرض، وانتظرنا صوت القسيس. لم يبدأ كالمعتاد. لم يستطع ذلك. كان يختنق، وسمعنا في الحال نشيج الرجل القوي. عندئذ استدار جون العجوز على ركبتيه وقال:

«أيها القسيس، أعتقد أننا قدّسنا الرب من صميم قلوبنا، على الرغم من أننا لم نتحدث بذلك قَطُّ، وربما هو ليس بحاجة إلى كلمات

منطوقة في هذه الليلة. فليباركنا الرب جميعنا، ويحفظ عزيزتنا فيليس من أي أذى!» وكانت صلاة جون العجوز المرتجلة هي كل ما فعلناه في تلك الليلة.

'فيليس'، كما أسماها، كانت تتحسن يوماً بعد يوم منذ ذلك الوقت، ولكن ليس بسرعة. كنتُ أحياناً أزداد يأساً، وخشيت ألا تعود أبداً كما كانت من قبل. وهي لم تعد كما كانت في بعض النواحي.

انتهزتُ فرصة مبكرة لكي أخبر القسيس بشأن مراقبة تيموثي كوبر الطوعية على الجسر خلال اليوم الصيفي الطويل.

قال القسيس، «اغفر لي يا رب! لقد كنت مُستبداً جداً في غروري. سوف تكون أول خطواتي خارج هذا المنزل إلى كوخ كوبر».

لستُ بحاجة إلى القول إن تيموثي كان قد أعيد إلى عمله السابق في المزرعة. ومنذ ذلك الحين وأنا معجب بالصبر الذي تحلى به سيده لتعليمه كيفية القيام بالعمل السهل الذي أصبح من الآن فصاعداً يُكيَّف وفقاً لقدراته. كانت فيليس تُحمَل إلى الطابق السفلي، وتستلقي ساعة بعد ساعة صامتة تماماً على الأريكة الكبيرة التي تم سحبها ووضعها تحت نافذة غرفة الأسرة. كانت دائماً تبدو على الشاكلة ذاتها، لطيفة وهادئة وحزينة. لم يعُد نشاطها مع عودة قوتها الجسدية. وكان من المثير للشفقة أحياناً رؤية محاولات والديها العقيمة لإثارة اهتمامها. وفي أحد الأيام، أحضر لها والدها مجموعة من الشرائط الزرقاء وهو يُذكرها، مع ابتسامة رقيقة، بمحادثة سابقة اعترفت فيها بحبها لمثل هذه الزينة الأنثوية. تحدثتْ معه بامتنان، لكن عندما غادر الغرفة وضعت الشرائط جانباً وأغلقت

عينيها في وهن. وفي مرة أخرى، رأيتُ أمها تُحضر لها الكتب اللاتينية والإيطالية التي كانت مغرمة كثيراً بها قبل مرضها، أو بالأحرى قبل رحيل هولدزورث، وكان ذلك هو الأسوأ على الإطلاق، فما أن أدارت أمها ظهرها حتى أدارت فيليس وجهها نحو الجدار وبكت. كانت بيتي تفرش غطاء المائدة من أجل وجبة غداء مبكرة، فرأت عيناها الحادّتان الوضع على هذه الحالة.

قالت وهي تقترب من الأريكة، «أنصتي يا فيليس! لقد فعلنا كل ما في وسعنا فعلُه من أجلك، وفعل الأطباء كل ما في وسعهم من أجلك، وأعتقد أن الرب قد فعل كل ما يستطيع فعله من أجلك، وأكثر مما تستحقين، أيضاً، غير أنكِ لم تفعلي شيئاً من أجل نفسك. لو كنتُ مكانك، كنتُ سأنهض وأتنشق القمر، قبل أن تفطري قلبَيْ أبيك وأمك بالمراقبة والانتظار حتى يحلو لك أن تشقّي طريقك لتعودي إلى البهجة. حسناً، لم أحبذ قطُّ المواعظ الطويلة، وقد قُلت ما لدي».

بعد بضعة أيام، سألتني فيليس عندما كنا وحدنا إذا كنتُ أعتقد أن والدي ووالدتي سوف يسمحان لها بالبقاء معهما بضعة أشهر. تورّدتْ قليلاً في أثناء البوح بتلعثم عن رغبتها في تغيير الأفكار والمشهد.

«فترة قصيرة فحسب يا بول. ثمّ سوف نعود إلى هدوء الأيام الخوالي. إنني أعرف أننا سنعود. أنا أستطيع ذلك، وسوف أفعله!»

* *



بنت الخال فيليس

تدور القصّة حول **بول مانينغ** البالغ من العمر تسعة عشر عامًا، والّذي ينتقل إلى الريف ليعمل في بلدةٍ قريبةٍ من مزرعة الأمل التي يملكها أهل أمّه، حيث يلتقي ابنة خاله (الثانية) فيليس هولمان، الجميلة والمحبوبة، الّتي تصغره بعامين، وتبدو مرتبكةً بسبب وقوفها الصعب عند حافّة المراهقة.

ومع أنّ عالمها محدودٌ وضيّقٌ إلّا أنّها كانت واسعة الفكر محبّةً للتعلّم بشكل كبير مثلما كان أبوها.

لقد أقرّ معظم النقّاد بأنّ (**بنت الخال فيليس**) هي تتويجٌ لما أنجزته **إليزابيث غاسكل** في مجال الروايات القصيرة. وهي رواية بسيطة وغير معقّدة. لكنّ، إيجابيّاتها تكمن في شكل سردها وحبكتها. (**بنت الخال فيليس**) اعتبرت أيضًا خاتمة العقد لروايتها الأكثر شهرةً وانتشارًا (**زوجات وبنات**)، الّتي نشرت مسلسلةً في مجلة (**كورن هل مغازين**) من آب 1864 حتّى كانون الثاني 1866.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الأهلية
الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 00962 6 4638688
فاكس 00962 6 4657445 منشورات 2020
الغلاف: ® 00962 7 95297109